

جدّد عقلك

« خمسة وعشرون مفهوماً لتحديث الذهنية »

أ. د. عبد الكريم بكار





الطَّبعَة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م



الأردن - عمّان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ مكتب ٦٠٥

هاتف ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ فاكس ٤٦٥٧٤٦٩ - ٠٦ خلوي ٥٦٥٢٨٠٤ - ٧٩ - ٠٠٩٦٢

ص . ب ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن

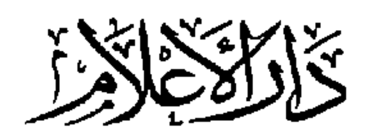
E-MAIL : AL_AALAM@YAHOO.COM

تنمية الشخصية (٤)

جدّد عقلك

((خمسة وعشرون مفهوماً لتحديث الذهنية))

أ. د. عبد الكريم بكار





مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا هو الكتاب الرابع في سلسلة (تنمية الشخصية)، وقد كان الكتاب الأول بعنوان (اكتشاف الذات)، وكان الكتاب الثاني بعنوان (خطوة نحو التفكير القويم)، أما الكتاب الثالث فقد كان بعنوان (تشكيل عقلية إسلامية معاصرة)، ومن الواضح أنني تناولت في هذا الكتاب والكتابين اللذين قبله الجانب العقلي والفكري في الشخصية، وأعترف أن الفصل بين هذا الكتاب والذي قبله فصل شبه تعسفي؛ لأن كلاًّ منهما يتناول تجديد البناء العقلي لدى المسلم المعاصر، وإن كنت حاولت في الكتاب السابق التركيز على ما له صله بطرق التفكير، وركزت في هذا الكتاب على مجموعة من الأفكار والمفاهيم التي يحتاج إليها المسلم المعاصر في استيعاب زمانه بتحدياته وفرصه.

وهذه المجموعة يمكن للمرء أن ينظر إليها على أنها أدوات في يد العقل مع أنها في الحقيقة تعيد تشكيل العقل وتحديث طروحاته وتصوراته، أي أن المفاهيم التي نملكها ذات عمل مزدوج، إذ إنها تتأبى على أن تكون في خدمة العقل دون أن تؤثر فيه وتجذبه نحوها.

إنني في هذا الكتاب لم أقصد إلى شرح كل المفاهيم المطلوبة لتحديث الذهنية، ولا أستطيع ذلك، وإنما هدفت إلى إثراء الساحة الفكرية ببعض الرؤى والتحليلات التي أظن أنها تسهم بشكل أو بآخر في تقدم العقل المسلم.

وإني لأشعر أن مساحات الدعوة والصحوة ـ رغم كثرة ما عُمرت به من الأفكار القيمة ـ ما زالت فقيرة، حيث إن التغيرات الحضارية المتسارعة تتطلب تسارعاً في توليد الأفكار والمفاهيم التي تمكننا من استيعابها والتعامل معها. وإني من هنا أدعو كل من يملك فكرة ناضجة أو تحليلاً عميقاً أو رؤية واضحة أن يقوم بطرحها وتقديمها بكل طريقة ممكنة، حيث تمكننا المفاهيم الثرية من أداء الأعمال بأكثر من طريقة، كما توفر لدينا الكثير من البدائل.

والله حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

أ. د. عبد الكريم بكار

أبها في ٢٧/ ٥/ ١٤٢٣

(١)
حتى يصبح للحياة معنى

في العالم شعور ضخم بالفراغ؛ وأكثر الأمم إحرازاً للتقدم العلمي والتقني هي أكثر الأمم شعوراً بفقد أنشطتها لغاياتها الكبرى ومعانيها السامية! إن من أدبيات النهضة الحديثة المعلنة والمستبطنة الحث على الانصراف عن التأمل في مصيرنا وفي مدى تحقيق إنجازاتنا لذواتنا وسعادتنا، إلى الاهتمام بالعمل والإنجاز والنجاح.

وتلك الأدبيات تمجد العمل المنتج مهما كان بعيداً عن أي مقصد روحي أو ديني أو خلقي. ولِمَ لا يكون ذلك وكثير من الفلاسفة يبشرون بأن المعرفة بالأشياء حين تمتزج بالإنجاز العالي، فإنها تغني صاحبها بنعيم فردوس أعظم من النعيم الموعود في الآخرة! لكن بعض ذوي الإحساس المرهف والأفق الواسع من حكماء الغرب بدؤوا يدركون شيئاً فشيئاً أن التقدم المادي لا يستطيع تحقيق كل أبعاد الجوهر الإنساني ولا إشباع كل تطلعات النفس البشرية. وصاروا يشعرون أن إطلاق العنان للفاعلية الإنسانية لتصبح في مستوى مبدأ من المبادىء الكبرى سوف يفرغ الحياة البشرية من الدلالات والمعاني الداخلية،

ويؤهلها لقبول كل شيء غير إنساني وغير أخلاقي؛ بل تجاوز الأمر ذلك إلى الشك في أن تكون إنجازات البشرية ـ المعزولة عن الاتصال بالغيب ـ كافية لتحقيق سعادة الإنسان، مهما بلغت درجة الرفاهية والأمن والتقدم التي سيتم تحقيقها.

إن هناك إحساساً متزايداً بأن الانسجام بين الإنسان والكون يتلاشى كلما صار الإنسان أصلب إرادة وأعظم قدرة، حيث يتجه الاهتمام إلى الإبداع والإنجاز بعيداً عن أي مطالب روحية أو مقتضيات أخلاقية. وهذا (جولان هكسلي) يقول: إن أقدس واجبات الإنسان، بل إمكانه الأكثر جدارة في الوقت نفسه، إنما يمثُل في تيسير تحقيق الحد الأعظم من المسيرة التطورية فوق هذه الأرض! لكن ما الذي في جعبة الذين يشكون من هذه الوضعية البائسة؟

الذي رأيته من خلال الاطلاع على كتابات الغربيين المتباكين على الأخلاق والأهداف الكبرى المفقودة، هو أن بعضهم يتاجر بذلك مجاراة لتيار جديد، أو لكي ينفي عن توجهه الفلسفي الإغراق في المادة، أو لكي يأتي بشيء جديد. وبعضهم ـ ولا شك ـ صادق في شكواه، لكن ليس عنده شيء يقولهْ، حيث الخوف الجاثم من أن يعيد الحديث عن الإيمان والآخرة والجنة والنار الغرب إلى حظيرة الكنيسة التي جاهد جهاداً مريراً للخروج منها والتحرر من ربقتها. إن المخاوف التي يعبرون عنها

كثيراً ما ترتبط بمصير الحضارة ومصير التقدم وسعادة الإنسان.

ومع أن الإنسان الغربي قلق تجاه الوضعية التي سيصير إليها بعد الموت، إلا أن معظم فلاسفة الغرب لا يجرؤون إلى الآن على التحدث في ذلك والتنظير له. يقول (هنري أرفون) في كتابه (فلسفة العمل): «لقد أصاب النقاد في إبراز تخبط الإنسان الحديث الذي تُرك في عالم بدون مفتاح وبإزاء حرية بدون مضمون. وعندما تحرر من خضوعه للطبيعة لم يعرف أي معنى يضفيه على انتصاره؛ فقد ضاق العبد عندما أصبح سيداً بحريته الجديدة. والواقع أن التقدم المادي لا يقود إلى أي مكان إلا إذا كان مرتبطاً بتقدم أخلاقي، يحض الإنسان على استخدام قدرته المتزايدة في سبيل انفتاحه الخاص».

ثم يقول الرجل: «ومهما يكن من أمر الأخطار التي تعرّض التقنيةُ الإنسان للوقوع في براثنها، فمن المحال الرجوع القهقرى؛ ذلك أن الإنسانية ربطت مصيرها بمصير علم منتصر، ولكن من الجائز ـ إن لم نقل مما لا غنى عنه ـ أن نتمم التحرر المادي الذي ندين به للتقنية بتحرر روحي».

هذا من أفضل ما يقوله الفلاسفة هناك، وهو كلام عام وغامض، وقد ختمه بجعل التحرر الروحي متمماً للتحرر المادي، ليس أكثر. وكأن زمان الثورات الفكرية في الغرب قد انتهى ليبدأ الحديث عن الأشياء الصغيرة!

إن الرؤية الإسلامية للوجود هي وحدها التي تستطيع أن تضفي معنى ممتداً وشاملاً على حركة الإنسان في هذه الحياة من خلال إعلان مبدأ (العيش لله) بما ينطوي عليه ذلك المبدأ من العبودية لله ـ تعالى ـ في العطاء والمنع والإقدام والإحجام، وبما ينطوي عليه من تفسير للأحداث اليومية التي يمر بها. وهذا واضح في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

بهذه العقيدة يحصِّن المسلم نفسه من الغرور باكتشافاته وإمكاناته، كما يستطيع التعامل مع مفردات الوجود على أنها مخلوقات لله ـ تعالى ـ مثله؛ وهي مثله أيضاً تسبح وتطيع الله؛ فلا يتخذون موقفاً عدائياً تدميرياً منها؛ وبهذه العقيدة تصبح نجاحات الدنيا كلها مؤقتة كما تصبح إخفاقاتها أيضاً عابرة، وبهذه العقيدة نقيد نزعات الحقد والكراهية والحسد وإيذاء الخلق، لنطلق لقوى الخير الكامنة فينا العنان من أجل نشر الفضيلة ومن أجل البناء والتنمية.

(١) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢)
شواهد التحضر بمقاصدها

إن المسلم مطالب بأن يملك الرؤية الأصيلة للإنجازات الحضارية أينما كانت، وكيفما كانت. والرؤية الأصيلة هي الرؤية الشرعية المرتبطة دائماً بالحق والعدل والاتزان، والمرتبطة بنظرة الإسلام إلى الحياة الدنيا، ولا سيما ما يتعلق بالرفاهية والتوسع في النعيم. وتكتسب هذه الرؤية اليوم حيوية خاصة، حيث اختلطت الأمور على كثير من الناس إذ باتوا شبه مجردين من الحساسية نحو تقليد الآخرين مهما كانت درجة انحرافهم.

حتى تكون عقليتنا إسلامية، فإن علينا أن نربط الإنجازات الحضارية بدلالاتها العميقة وبمقاصدها وبالظروف التي اكتنفتها. وهنا أود أن أذكر على سبيل المثال بعض الشواهد الحضارية في الأندلس من أجل توضيح الصورة. إن التقدم العمراني المذهل الذي حدث في الأندلس أيام الحكم الإسلامي يدل على أن المسلمين هناك كانوا يمتلكون الكثير من المعارف والخبرات المتقدمة بالنسبة إلى ما كان موجوداً في محيطهم؛ وهذا ليس موضع جدال. ولكن هل كل تقدم عمراني يعد تمدناً وتحضراً، أم لا بد من البحث عن دلالات أخرى أكثر شفافية وأكثر التصاقاً بالرؤية الحضارية الإسلامية؟

إن القرآن الكريم يعلمنا أنه ليس هناك أمة هلكت بسبب قصور في العمران، وإنما بسبب استدبار رسالات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. وبناء الأبنية العظيمة في الأندلس قد تجاوز حدود الخيال بسبب الأموال الهائلة التي أُنفقت فيها، وقد كان ذلك مصادماً للبنية العميقة للتدين الحق ومخالفاً لكل الأدبيات التي تهوّن من شأن الدنيا، وترغِّب في الآخرة. ولنا أن نسأل عن أعداد الفقراء الذين تم اقتطاع تكاليف أشكال الرفاهية من قوتهم اليومي ومن حصتهم من ناتج البلاد الأندلسية وخيراتها؟!

لا ريب أن أعداداً ضخمة من الناس كانت تشعر بالظلم والجور. وهذا من عوامل تفكيك المجتمع وذهاب الريح وتعجيل السقوط. وإذا نظرنا إلى السياق الذي تمت فيه تلك المنجزات العمرانية والمقاصد والدوافع التي كانت خلفها وأمامها، وجدنا أنها تمت في سياق التنافس في إثبات الذات والغلبة على النظراء وسياق الاستمتاع والترفُّه والتفاخر والتكاثر. وهذه المعاني حين توجه سلوك شخص أو أمة، فإنها تدل بصورة واضحة على هزيمة الروح وجفاف المنابع الداخلية للسعادة الحقيقية، حيث تكون أشكال المرفهات عبارة عن تعويض عما فقده الناس من السمو الروحي والاطمئنان الوجداني؛ ولذا فالمباني الأندلسية الفخمة هي شواهد سقوط حضاري أكثر من أن تكون شواهد على النهوض والتقدم.

قصر الزهراء ـ مثلاً ـ اشتغل فيه عشرة آلاف عامل وثلاثون ألف دابة وكانت سواريه ـ كما زعموا ـ من المرمر والحجر الشفاف، وكانت رؤوسها مرصَّعةً باللؤلؤ والياقوت، هذا القصر منسوب إلى الزهراء حظية عبد الرحمن الناصر! إنه آية في الإتقان والفخامة والجمال، ولكن لا صلة له بتدين أو رجولة أو صلاح!

إن ما كان لله ـ تعالى ـ اتصل واستمر، وما كان لغيره فمصيره الاضمحلال والاندثار. وإن الذين يزعمون أنهم ينصرون الدين ويعملون من أجل الأمة كثيرون جداً في كل زمان ومكان، لكن حين يُرفع لواء المخلصين يوم القيامة فإن الذين ينضوون تحته قليلون!



(٣)
إعادة تحرير الإنسان

تعلمنا من أخبار الأمم السابقة وتجاربها أن الإنسان يملك طاقات هائلة، وهو بتلك الطاقات يصنع التاريخ، لكنه وهو يفعل ذلك كثيراً ما يفقد السمات الأساسية التي تميزه عن الحيوان وعن الأشياء من حوله، فيفقد حريته وتحرره، ويفقد اتجاهه، ويصبح مستعبَداً للأشيـاء التـي صنعها بيديه.

إن الدين الذي أكرمنا الله ـ تعالى ـ به جاء مكملاً لرسالات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومحيياً ومجدداً للمعاني التي اندرست بفعل طول الأمد وتطاول العهد، ومصححاً للمفاهيم التي حرّفها أتباع تلك الرسالات. ومن خلال تصحيح المفاهيم وإحياء المعاني يتم تحرير الإنسان من جديد، الإنسان الحر الكريم العابد المتراحم الذي يعمر الأرض، ويحارب الفساد والطغيان، الإنسان الذي يتخذ من الفوز برضوان الله ـ تعالى ـ والنجاة في الآخرة الهدف الأسمى الذي يكيف كل حياته في سبيل الوصول إليه. وقد علمتنا النصوص ودلائل أيام الله في الأمم الغابرة أن الإنسان مثل الطائر يهوي نحو الأرض إذا توقّف جناحاه عن الحركة. وجناح المسلم وأدواته في التقدم نحو

الإسلام ونحو المقام الذي يليق به تتمثل في التحرير المستمر للمفاهيم التي تستولي عليه، وتوجه حركته اليومية، كما تتمثل في تجديد روحه وعزيمته في مقاومة الأهواء والشهوات والمصالح الآنية الضيقة.

الجاهلية بوصفها روحاً ومفاهيم تظل تطرق الأبواب في كل مكان من العالم الإسلامي؛ لتملأ البيوت التي تفتح أبوابها لها بالوثنية وعبادة المادة والجور والفساد والانتصار للجسد على الروح، والقوة على الرحمة، والوسيلة على المبدأ، والدنيا على الآخرة. والعولمة اليوم تسوِّق لكل مرتكزات الجاهلية القديمة ولكل مفاهيمها وأساليبها حيث تحاول إعادة ترتيب أوضاع البشرية من جديد على حساب النموذج الذي قدمه الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فهي تنشر مفاهيم حب المال والمتعة واللهو والشكلية والمظهرية والفردية والحرص على المكاسب العاجلة. كما أنها تمجد التسلط والشهرة والجاذبية الشخصية والنجاح والتحرر والانطلاق من القيود الأخلاقية. ولو أننا عمقنا النظر في هذه المفاهيم لوجدنا أنها تساعد على تكوين إنسان دنيوي أناني من الطراز الأول. وهذا يصادم على نحو مباشر كل المفاهيم التي تشكل البنية العميقة للشخصية الإسلامية.

إذا استطاعت العولمة النفاذ إلى جوهر التشكيل العقلي والنفسي للإنسان المسلم وتوجيه سلوكه بما تبثُّه من دعاية، وبما تنشئه من

ظروف ووضعيات، فإن كثيراً من جهودنا التعليمية والتربوية والدعوية سيكون أشبه بترصيع الذهب على معدن صدىء متآكل!

إن العالم بأجمعه يشعر بالمشكلات الإنسانية الهائلة التي تثيرها العولمة، ولكنه لا يملك المرجعية الفكرية والروحية كما لا يملك الأدوات التربوية والتوجيهية التي تمكنه من مجابهة العولمة.

وأمة الإسلام هي الأخرى لا تملك كثيراً مما تحتاجه في مقاومة العولمة، لكنها تملك عقيدة صافية ومبادىء وأسساً صالحة لتشكيل نموذج نظري للإنسان المعاصر الذي ينسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وينسجم مع الوضعية العامة للوجود ومع قوانين الحياة، كما يحقق ذاته ومصالحه الخاصة في إطار المصلحة العامة للمجتمع، لكن علينا إلى جانب هذا أن نقول: إن النموذج الأمثل الذي نتخيله للإنسان السويّ المحرَّر والمعاصر ليس جاهزاً بين أيدينا، نقدمه للعالم على طبق من فضة. إن لدينا أسساً ومفاهيم وملامح تحتاج إلى سكب متقن في قوالب خطابية وتوجيهية وتربوية جديدة. وهذا يقتضي فهماً جيداً لما يجول في أذهان الناس، ولما يعتلج في نفوسهم، وليس هذا بالأمر السهل، لكن ليس لدينا أي طريق آخر.



(٤)
النمو ليس بهدف

يكتسب مفهوم النمو في ظل العولمة التي تجتاح العالم أهمية إضافية، حيث إن عقليتنا تتغذى اليوم بمفاهيم أجنبية كثيرة تجافي روح ثقافتنا الإسلامية الأصيلة. وقد أضحى مفهوم اكتساب المزيد من القوة والسيطرة وتكديس المزيد من الأموال من أهم المفاهيم الجذابة في العصر الحديث وأكثرها تأثيراً في توجيه السلوك والعلاقات الإنسانية. إن الغرب الذي يعد المحرك الرئيس للعولمة والمستفيد الأساسي منها لا يمتلك أي أهداف حقيقية تتجاوز الحياة الدنيا؛ ولذا فإنه قد اعتمد (النمو) في كل الاتجاهات وكل المجالات بوصفه الهدف الأسمى والأكثر جاذبية وتألقاً.

وقد كان مفهوم النمو في العقلية الغربية يشمل التنمية الروحية والأخلاقية والمادية، وقد قلَّصه الغرب ليدل على التنمية المادية فحسب. وبما أن النفس لا تشبع من جمع الأموال وامتلاك الأشياء، وبما أن المال في الأصل محدود، فقد نشبت منافسة أممية ومحلية ضارية على امتلاك أسباب الثروة ومصادرها. ويجري الآن من خلال تلك المنافسة نشر أشكال هائلة من الفساد والتخريب، فالمصادر الأولية غير القابلة للتجدد تُستنفد بسرعة والبيئة تلوَّث، والظلم وأكل الحقوق في تزايد مستمر، وأمراض

أخلاقية مثل الكذب، والرشوة تستفحل، وأكل الربا والمتاجرة بجسد المرأة والخروج على القوانين المرعية في تصاعد. وقد أضحى كثير من الناس فعلاً يقومون بأعمال لا يقوم بها الحيوان الذي يُتهم دائماً بالانحطاط. إن الحيوان لا يصاب بالتخمة، كما هو شأن الإنسان، كما أن المفترس منه لا يفترس أكثر من حاجته، على حين أننا نرى كثيراً من الناس يمارس التضييق والتجويع ضد مئات الناس ممن يعملون لديه من أجل زيادة درجة رفاهيته، أو رفع أرقام أرصدته!!

إن الرؤية الإسلامية في هذا الشأن شديدة الوضوح والتألق، كما أنها عظيمة الرفعة والسمو؛ إنها تنظر إلى النمو على أنه لا يصلح أن يكون غاية نهائية، بل ينبغي أن يكون طريقاً للوصول إلى أهداف مشروعة، كما أن المال ـ على وجه الخصوص ـ هو أداة لتبادل المنافع وقضاء الحاجات وكسب رضوان الله ـ تعالى ـ. وفي الكتاب والسنة الكثير من النصوص التي تحذر الناس من الركون إلى الدنيا واستهداف الاستمتاع بها، وتحويل امتلاك المال إلى هدف نهائي. يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[1] وفي حديث الشيخين:

---

(١) سورة الحديد: ٢٠.

«جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها». وفي حديث الترمذي: «إن لكلِّ أُمة فتنة، وفتنة أُمتي المال». وفي حديث الترمذي أيضاً: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». وفي حديث مسلم: «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً وقنّعه الله بما آتاه».

حين يكون النمو هو المنتج الطبيعي لتأدية الأشياء بطريقة صحيحة، فإنه يكون خيراً وبركة على صاحبه وعلى المجتمع المسلم، وسيلقى صاحبه المعونة من الله ـ تعالى ـ على توظيف ما كسبه وعلى إنفاقه في طرق مشروعة على ما هو الغالب فيما نشاهد من أحوال الناس؛ ولكن حين يصبح النمو نفسه هدفاً فإنه يتحول إلى محرّض على رسم الأهداف المستحيلة وسلوك السبل الشائنة، إنه آنذاك يعبر عن شهوة مستعرة أكثر من أن يعبر عن أي شيء آخر.

إن الإسلام لا يريد من المسلمين أن يكونوا فقراء يعانون من ويلات الجدب وضيق ذات اليد، لكنه يريد من الواحد منهم أن يجعل امتلاك المال جزءاً من عتاده للاستقامة والصلاح والفوز بالجنة، كما في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح». وهذا في الحقيقة أكبر ضامن لجعل المسلم يتحرز من اكتساب المال من طرق غير مشروعة، وأكبر

ضامن كذلك لجعله يتحرَّى المواضع والمجالات التي ينفق فيها ماله. إن المسلم الذي يكتسب المال من أجل إعفاف أسرته وصلة رحمه والإنفاق في سبيل الله ـ تعالى ـ وتشغيل إخوانه المسلمين في الوظائف التي يوفرها المال ـ يجد دائماً الروادع التي تردعه عن سلوك السبل غير المشروعة للحصول على المال. إنني أعرف أن السباحة ضد التيار الجارف ليست بالأمر اليسير، ولا يقوى عليها كل الناس، لكن أعتقد أن إغناء حياتنا بالأنشطة الروحية والدعوية والأدبية والإنسانية سوف يخفف من الطلب على المال، وقد دلَّت بعض الدراسات أنه كلما ارتقى المستوى المعرفي والعقلي للإنسان قلَّ إقباله على الزخارف والكماليات، وضعفت شهيته نحو استهلاك الأشياء، والعكس صحيح. فإذا أردنا فعلاً أن نحاصر الكثير من الشر الذي ولَّده استهداف النمو، فلنبدع في إيجاد الأُطر التي تساعد الناس على إغناء حياتهم بالأنشطة التي لا تستهدف الحصول على المال، ولا تحتاج إليه.

(٥)
تغيير أم تحسين؟

التقدم التقني الهائل الذي يحدث في كل لحظة جعل الحسَّ البشري يألف التعامل مع المتغيرات، وجعل الأذهان تنفتح على إمكانات واسعة للتغيير والتجديد؛ كما أن الفراغ الروحي الهائل وتقلُّص الأنشطة الأدبية قد دفعا بكثير من الناس إلى الاهتمام بالشكل والمظهر لتجريب متع وملذات جديدة، وللفت انتباه الآخرين؛ وهذا لا يتم من غير التخلي عن كثير من القديم.

حين يتفشى الجهل وسوء الأحوال، فإن الوعي البشري ينصرف عن الاهتمام باكتشاف آفاق التغيير إلى الشكوى وتوصيف أشكال المعاناة، ويتم إسدال الستار على البحث في إمكانات تغيير المفاهيم والسلوكات والبيئات بوصفها ركائز مهمة في مسألة التقدم والتحسن. إن مفكراً اجتماعياً عظيماً ومبدعاً مثل ابن خلدون لم يخطر في باله التنظير لدور الإنسان المسلم في التغيير، وتوضيح ما يمكن أن يقوم به في سبيل تحسين نوعية الحياة؛ إنه اهتمَّ بشرح وقائع الأحوال والكشف عن سنن الله في العمران، وكأنه ينظر إلى ما هو كائن، وليس إلى ما ينبغي أن يكون، مع أن القرآن الكريم يلقي تَبِعَة التغيير على الناس، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

---

(١) سورة الرعد: ١١.

فتغيير البيئة والأوضاع والأحوال هو من عمل الله ـ تعالى ـ ونوعية ذلك التغيير مرتبطة بنوع التغيير الذي يحدثه البشر في نفوسهم وسلوكهم؛ فإذا تابوا وأحسنوا كافأهم الله ـ تعالى ـ على ذلك، ويسَّر لهم سبل الفلاح والنجاح، وإذا نكصوا على أعقابهم ورضخوا لشهواتهم، عاقبهم على ذلك بما يسبّب لهم صنوف الآلام والعقبات والمشكلات. وهذا واضح في خطاب الرسل ـ عليهم السلام ـ لأممهم في كل العصور.

لم نعد نعاني اليوم من هذه المشكلة، فالتميز الذي يسعى إليه كثير من الناس، يعتمد أساساً على تغيير ما هو سائد، لكن يظل المهم هو أن ندرك الفرق بين التغيير والتحسين، وألا نتخذ من التغيير هدفاً مطلقاً نحاول تحقيقه في كل حين. وهذه بعض المفاهيم في هذا الشأن:

١- من أسباب سيطرة الجمود في الماضي وعدم التطلع إلى التغيير والبحث عنه ـ توهم كثير من الناس أنهم قد بلغوا الغاية في الرقي أو حازوا الكمال الممكن بالنسبة إليهم؛ وما ذلك إلا لقلة اطلاعهم وضعف اتصال أجزاء العالم بعضها ببعض. أما اليوم فقد ساد مفهوم يكاد يكون معاكساً لما كان سائداً، حيث بتنا نعتقد أن الكمال الذي بلغناه أو قاربناه هو نفسه يحتاج إلى نوع من التجاوز والتغيير، إذ بمجرد أن يصل المرء إلى مكانة أو مستوى في مجال من المجالات يجد نفسه بعد مدة يسيرة مسبوقاً

بسبب المنافسين له على القمة وبسبب تغير الظروف المحيطة، ولذا فإنه يشعر أن عليه أن يتغير ويغيّر أساليبه ووسائله إذا ما رغب في أن يظل قادراً على التوهم أنه في المقدمة. هذا المفهوم يُعد ثورياً جداً في مجال الارتقاء والتقدم والإنتاج. وإن كثيراً من الازدهار الحاصل الآن مدين له بصورة من الصور.

٢- كثير من الناس يشعرون بعدم الرضا عما هم فيه، ولذا فإنهم وجدوا أنه لا بد من التغيير بغية تحسين الأحوال والتخلص من بعض المشكلات. وهذا شعور جيد ومطلوب، لكنهم وجدوا أنهم لا يملكون الإرادة ولا العزيمة الكافية لتغيير أنفسهم على مستوى المشاعر والمفاهيم وعلى مستوى السلوكات والعلاقات، فعمدوا إلى تغيير ما وجدوه سهلاً عليهم من الثياب والمساكن والأثاث والأدوات، وقد بلغ ذلك حدوداً مخيفة جداً، حيث وصل ذلك إلى حقل العلاقات الأسرية، وقد بات معروفاً أن أناساً كثيرين في العديد من الدول الإسلامية صاروا يتعاملون مع زوجاتهم في ظل شعار: (الراحة في التغيير) فكثرت حالات الطلاق إلى درجة مقلقة، حيث نشر في بعض الصحف أن بعض المحاكم في إحدى الدول الإسلامية سجلت عام ١٤٢٢هـ (٢٠٠٠) حالة طلاق مقابل توثيق ٨٥٠ حالة زواج!

إن التغيير ـ بالنسبة إلى الناس الذين فقدوا روح الالتزام، وصارت دواخلهم تصفر من الخواء والفراغ ـ لا يعني أكثر من

الانحطاط والانحدار، وهم عبارة عن مرضى حقيقيين يستحقون الإشفاق، ويحتاجون إلى العلاج.

٣- يمكن القول: إن كل تحسين ينطوي على شكل من أشكال التغيير، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى أن ينطوي كل تغيير على تحسين، فالتغيير قد يكون نحو الأفضل وقد يكون نحو الأسوأ، تماماً كما هو شأن السيارة حين تتحرك، فقد تكون حركتها نحو الأمام، وقد تكون نحو الخلف. مثل التغير والتحسن، والتطور والتقدم، والحداثة والنهضة، إذ إن النهضة تشتمل على التحديث كما أن التقدم يشتمل على التغير، لكن العكس قد يكون، وقد لا يكون؛ السؤال الآن: ما المواصفات التي تجعلنا ننظر إلى التغير على أنه شكل من التقدم والتحسن؟

من الصعب الإجابة على هذا السؤال بشكل واضح ودقيق، لكن يمكن أن نقترب من الإجابة إلى حدود مقدرة، ولعلي أوجزها في النقطتين التاليتين:

أ - نحن نفترض أن تساعد التغيرات التقنية والتنظيمية الحادثة على تحرير الإنسان؛ فالذات البشرية لا تنمو ولا تتفتح إلا من خلال الانعتاق من أَسْر الضرورات التي تحيط بها. وذلك الانعتاق يتطلب دائماً وجود خيارات وبدائل، فقد صار في إمكان المرء أن يسافر إلى كثير من البلدان عبر وسائل متعددة جوّاً وبرّاً وبحراً. وصار في المدينة الواحدة أكثر من لون من ألوان التعليم

الذي يلبي العديد من الرغبات والطموحات. . . إلخ؛ وهكذا فإن أي تغيير يؤدي إلى توسيع مساحات الحركة والاختيار أمام الإنسان يمكن أن ينظر إليه على أنه نوع من التحسن والتقدم والنهوض. وكل تغيير يؤدي إلى تنميط الحياة، وإفقار البدائل يجب أن ينظر إليه على أنه نوع من التدهور والتقهقر نحو الأسوأ.

ب- مهما كانت الحُلَّة التي تكتسي بها التغيرات الجديدة، ومهما كانت الضرورات الداعية إليها، فإنها ـ حتى تستحق التعامل معها على أنها تحسين يجب الحرص عليه ـ يجب أن تعزز الوضع الإيجابي القائم على الصعيد الأخلاقي والاجتماعي والإنساني عامة. وهذا كله يتوفر حين تحمل التغيرات الجديدة جواز مرور من الرؤية الإسلامية للحياة والأحياء؛ فالتغيرات التي تجعل إحساس الناس بالغاية الكبرى من الحياة والهدف الأسمى من الوجود قوياً وواضحاً هي تغيرات جيدة وإيجابية. والتغيرات التي تسمم الحياة الاجتماعية وتوهن قوة الجماعة، والتغيرات التي تؤدي إلى الأنانية والفردية المريضة، والتغيرات التي تلوِّث المحيط الحيوي للإنسان، وتجعل الأرض غير صالحة للسكنى، والتغيرات التي تؤدي إلى الظلم واستثمار التفوق على نحو غير مشروع وإلى عدم تكافؤ الفرص وإلى التحلل الخلقي، هي تغيرات سيئة وسلبية؛ والفرح بها لا يكون إلا جزءاً من غفلة شاملة!

إن المطلوب دائماً تركيز الوعي على التغيرات الجارية حتى نراها بعين البصيرة، وحتى لا نسمح للسيىء منها أن ينقلب من أحوال عابرة إلى وضعيات ثابتة تعمل لصالح الرذيلة والشر والتخلف. التغيير من أجل التغيير داء خطير لا يتوضّع في حياة الشخص إلا حين يضعف إحساسه بالثوابت، وإلا عندما تخلو حياته من المعنى الذي يمنحها القيمة التي تليق بالإنسان المسلم. التغيير من أجل التغيير مثل النوم من أجل النوم، والسفر من أجل السفر، والمشي من أجل المشي. . . إنه أشبه بالتغيرات التي تطرأ على الجمادات التي حُرِمت من نعمة العقل ونعمة الشعور، وبالتالي من نعمة الحياة.

(٦)
التحلل الذاتي أساس البلاء

لن نستطيع تكوين عقلية إسلامية معاصرة من غير فهم دقيق وشامل للأسباب التي أدت إلى التخلف الصناعي والتقني الذي يعاني منه العالم الإسلامي، ومن غير تحليل جيد للأسباب الحقيقية التي حولت الأمة من أمة ريادة وإبداع وقوة إلى أمة تبعية وجمود وتمزق. وليس هذا المطلب بالأمر اليسير، فقد برهن الوعي المرة تلو المرة على أن إحاطته بالآخر وبالقوى الأجنبية المغايرة وتحسسه لضغوطها وتداخلاتها، أقوى بكثير من إحاطته بالذات وبمكامن العلل الداخلية.

ولهذا فإننا سرعان ما نقفز في أحيان كثيرة من تحليل دور البنى الداخلية في حدوث التخلف إلى التركيز على دور الاستعمار وممارساته ضدنا في القديم والحديث وفي المجالات كافة. وأحياناً نؤكد على دور النخب في العالم الإسلامي والتي تمثلت مبادىء الغرب وقيمه، وأخذت تتخذ منها ـ بمساعدة الغرب ـ وسائل لمحاربة القيم العربية الإسلامية ومحاصرة المتمسِّكين بها.

وفي اعتقادي أن شيئاً من هذا التحليل صحيح، وأن شيئاً

ليس بالقليل من إيذاء الآخرين لنا قد وقع، وما يزال يقع، لكنه لا يشكل العامل الحاسم في انهيار نظم الحضارة في العالم الإسلامي وفي تهميش القيم الإسلامية عن ممارسة دورها في صياغة السلوك الفردي والجماعي، وإنما كان العامل الحاسم ـ وما زال ـ يرتدُّ إلى القصور في المفاهيم التي نمتلكها عن التحدُّث والتحضُّر، وإلى البُنى والهياكل التي يجب أن تتجلى في تلك المفاهيم. وإن أي تفسير لتخلُّف العالم الإسلامي يتجاوز هذا العامل الحاسم هو تفسير سطحي وعقيم بعيد عن فهم سنن الله ـ جل وعلا ـ في ارتقاء الأمم وانحطاطها.

كثيراً ما يفوتنا إدراك أن الإنسان كائن استهلاكي، وهو لا يستهلك الطعام والثياب والأثاث فحسب، وإنما يستهلك أيضاً النظم والأفكار والشعارات والصيغ والملاحظات... إذا رفعت شعار (الوحدة) مثلاً وبشَّرت به، فإن الناس ينتظرون أشياء ملموسة وقريبة من المختزن في ذاكراتهم عن الوحدة، فإذا مضت مدة طويلة دون أن يتحقق شيء يرضيهم، فإن الناس يسأمون من ذلك الشعار، ويبدأ جمهورهم بالتخلي عنه بوصفه أمراً غير ممكن التحقيق، أو لم يحن وقت تحقيقه، ويأخذون في البحث عن شعار جديد، يعلقون عليه آمالاً جديدة، ويتعجبون ممن يتمسك مدة طويلة بشعارات وإعلانات دون أن يكون هناك أي أفق لجعلها واقعاً معاشاً. وحين تقوم جماعة أو جمعية أو أي

جهة، وتأخذ على عاتقها تحقيق أهداف معينة، وتمضي مدة كافية دون أن يتم الاقتراب من تلك الأهداف، فإن الناس لا يشكون في أن آليات العمل لدى تلك الجهة ليست صحيحة، ويجب إحداث تغيير كبير في صيغ العمل وطرائقه وهكذا. . . فإذا لم يحدث التجديد المطلوب، انقسم الناس حيال ذلك ما بين متمسك بالقديم وزاهد فيه. وتجدّ ظروف وأوضاع تجعل الأدوات المستخدمة لتحقيق القديم غير فعالة وغير مجدية، مما يجعل الإنتاجية تنخفض في الوقت الذي تتراكم فيه الصعوبات والمشكلات. والنتيجة العامة لذلك الوهنُ والتشتتُ وذهاب الريح والشعور بالنقص والعجز. والمحصلة النهائية هي التحلل الذاتي تماماً، كما يحدث للجسم الإنساني حين تضعف قواه المختلفة بالتدريج، حتى إذا ثقل على الروح تخلصت منه وغادرته.

شيء من هذا حدث لدى أمة الإسلام على مختلف الصعد وفي جميع المجالات، ولا نستطيع تحميل مسؤولية ذلك لأي جهة خارج نطاق الأمة. إن احتكاكنا بالغرب عن طريق الحروب وعن طريق الاستعمار والتجارة والبعثات العلمية، واليوم عن طريق وسائل الاتصال الجبارة، قد جعل الناس يدركون على نحو واضح كثيراً من المشكلات التي يعانون منها، حيث أتيح لهم أن يقارنوا ـ والمقارنة أساس في نشأة كل العلوم ـ أنماط

عيشهم وأداء مؤسساتهم وحجم معارفهم . . . بما لدى الغرب . وبما أن المقارنة كثيراً ما تأتي بالمفارقات، فإن الناس عندما اكتشفوا حجم الهوة التي تفصل بين عالمهم والعالم الغربي، واكتشفوا أن مساهماتنا في الحضارة الحديثة ضئيلة، أصيبوا بالإحباط، وبدؤوا يشعرون بانسداد الآفاق. ومع أننا نملك الكثير من الإمكانات والقدرات إلا أن من البادي للعيان أننا غير قادرين على توفير الشروط وبناء الأطر والمؤسسات التي من دونها لن نستطيع بناء المسلم المعاصر ولا إحداث نقلة صناعية جيدة. كما بدا أننا غير قادرين على إدارة شؤوننا الداخلية على أساس الاحترام للحقوق والواجبات، وعلى أساس التفاوض والتشاور الذي يعد السبيل البديل عن سبيل العنف والتسلط والقهر والاستبداد. هذه الأشكال من العجز تحقق مصالح الأعداء والمنافسين، وربما ساهموا في ترسيخها واستمرارها، لكن نقول مرة أخرى: إن ضعفنا الذاتي هو الذي جعل الأعداء يتمكنون من النفاذ إلى شؤوننا الداخلية والتلاعب بها؛ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا لا نقوم نحن بالتدخل في شؤونهم؟!

الأمم الهشة والتائهة تستجدي دائماً الحلول على أبواب الأمم القوية، وتدفع في مقابل الفتات الذي تحصل عليه ـ والذي لا يزيدها إلا خبالاً ـ كرامتها واستقلالها عوضاً عن تعميق النظر في الأسباب والعوامل الداخلية التي تدفع بها دائماً نحو الهوامش والأطراف، وآمل ألا تكون أمة الإسلام كذلك.

(٧)
التجلي امتحان العظمة

قد آن الأوان لوضع النقاط على الحروف في شأن الكثير من الموروثات والعادات بغية الحصول على درجة من المعاصرة والتلاؤم مع متطلبات عصرنا. ومن جملة ما يحتاج إلى ذلك موضوع (العظمة)؛ ذلك أنني كثيراً ما كنت ألاحظ إضفاء صفات التبجيل والتفخيم والتقديس على أشخاص لا يستحقون ذلك، وكنت أحاول أن أعثر على ما يجعلهم جديرين بذلك، فلا أعود إلا بخيبة الأمل! ثم تبين لي أن بعض الناس يخلع حلل العظمة على بعض الأشخاص من أجل تحقيق مصالح يسعى إليها، أو من أجل التعبير عن مشاعر عبودية وتبعية متأصلة فيه.

نعم هناك احتمال في أن نحسّ بعظمة بعض الأشخاص دون أن نرى تجليات عظمتهم في أمور تعود علينا بالنفع والارتقاء. وفي هذه الحالة فإن علينا أن نستخدم نفاذ بصائرنا في محاولة اكتشاف الجوانب التي تجعل بعض الناس موضع انبهار وإعجاب من غيرهم؛ فإذا لم نجد، فإن لنا أن نتوقع أن هناك من يعمد إلى خداعنا وإيهامنا بأن وراء الأكمة ما وراءها، وأن وراء الجعجعة طِحْناً؛ ففي مجتمعاتنا الإسلامية الكثير من الناس الذين يحاولون

الظهور بمظهر المشغول دائماً، وهم يرفضون أن يحدثوك عن الأمور التي تشغلهم! وبعد عشرين سنة من مشاغلهم التي لا تنتهي تنظر فيما نتج عن ذلك الانشغال، فلا تكاد ترى أي شيء ذي قيمة!

حتى نتخلص من الوهم والخداع وسوء التفسير فإن علينا أن نقول: لا عظمة بدون تجلٍّ، كما أنه لا مخترعين بدون اختراعات، ولا شعراء من غير شعر، وكما أنه لا أبطال من غير بطولات.. بعض الجماعات تدعي أنها تتمتع بالفكر المتوهج والراقي والمناهج العظيمة، وبعضها يدعي التفوق في مجال العمل السياسي، وأخرى تدعي التفوق في مجال التربية... ثم تنظر فلا ترى إنتاجاً فكرياً ولا تفوقاً مناهجياً، كما لا ترى نجاحات سياسية، ولا ناشئةً تَنُمُّ عن تميز من رعاها ورباها!!

أنا شخصياً أغتبط اغتباطاً شديداً حين أتعرف على عظيم؛ لأنني أرى فيه النموذج الذي عجزت عن تحقيقه في نفسي، أو لأنني أرى من خلاله إمكانية ارتقاء ذاتي إلى مستوى أفضل مما أنا عليه.

تنبع عظمة العظماء من خلال الخدمات الجليلة التي يقدمونها للأمة مجاناً ومن غير أي شروط أو انتظار أي مكافأة. ونحن من خلال تلمسنا لتجليات العظمة ومن خلال تحسين الوعي بما يقدمه العظماء نهدف إلى أمرين:

الأول: محاولة الاستفادة من عظماء الأمة في الجوانب والمجالات التي نلمس تقدمهم فيها.

الثاني: التخلص من الأعباء التي يحملنا إياها تبجيل الأشخاص الذين لا يملكون أي شيء يقدمونه للأمة على أي مستوى من المستويات.

وفي اعتقادي أن من أهم تجليات العظمة الآتي:

- القيام بدور لا يمكن لأحد القيام به، أو القيام بعمل لا يمكن أن نستغني عنه؛ فحين يعجز الناس عن حل مشكلة عويصة، ويتقدم أحدهم لحلها، وحين ينهزم جيش بأكمله، ويأتي قائد محنك، فيجعل من نفسه نواة لتجميع الجيش من جديد وانتزاع نصر كان ميؤوساً منه ـ كما فعل رسول الله ﷺ يوم حنين ـ فإن ذلك تجسيد لشكل من أشكال العظمة.

- إن العظماء يخلصوننا من أَسْر المحدودية التي يشعر بها كل واحد منا، إنهم يفتحون باستمرار حقولاً جديدة للأمل والتأمل والممارسة والإنجاز من خلال مدنا بالطموحات، ومن خلال توسيع أمداء الإمكان الإنساني. إنهم يحطمون الأوهام، وينفخون روح التوثب في النفوس المهزومة.

- وجود عدد كبير من العظماء في الأمة يوفّر ما يشبه الضمان لحمايتها من التقهقر والانحلال والانحطاط، إنهم مجددون يجددون النماذج والصيغ ويرأبون الصدوع، ويسدون الثغرات،

ويجسّرون العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل.

- من سير العظماء ومن مواقفهم وأخلاقهم ومن القيم والمبادىء التي يبعثون فيها التوهج، نستمد المعايير التي نحكم من خلالها على الممارسات والسلوكات.

ولا بد مع هذا من القول: إن هناك شعوباً عُرفت بالتغافل عن عظمائها، وعدم تقدير جهودهم، والنظر إليهم دائماً على أنهم أناس عاديون! وتلك الشعوب تخطىء في حق نفسها، حيث تدفع بخيار أبنائها إلى خارج محيطها، حيث يجدون التشجيع والتقدير الذي يستحقونه.

إن حبنا للعظمة والعظماء لا ينبغي في حال من الأحوال أن يصل إلى حد المديح المبالغ فيه أو إلى التقديس الذي يجرح صفاء العقيدة.

وإن أفضل تقدير للعظماء هو ذلك الذي يتمثل في الاعتراف بجهودهم ومساعدتهم على أداء رسالتهم.

(٨)
تجديد النماذج

لكل أمة مبادئها ومنطلقاتها التي تشكل قوام وجودها المعنوي. ولها كذلك أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها. وهي حتى تتحرك صوب أهدافها على هدي مبادئها في حاجة إلى أن تفتح على نحو متجدد مجالات للفعل والممارسة، وتوظيف الإمكانات على أساس صيغ محددة.

وهذه الصيغ يمكن تسميتها بـ (النماذج). وعلى مقدار انتشار النماذج واتساع استخدامها، وعلى مقدار درجة مرونتها وقدرتها على تحقيق الأهداف المنوطة بها، تتقدم الأمة في مراقي التحضر. وكلما تعقدت الحياة احتجنا إلى نماذج أكثر حتى نستوعب تنوع الحاجات المتسعة لدى الناس. وكلما نجحنا في توفير نماذج أكثر أتحنا للناس مشاركة أكبر في تحقيق دفع عجلة الحياة وحل المشكلات الماثلة.

إن كل نموذج نقوم ببنائه يكون في العادة ملائماً للظروف التي نمر بها، كما يكون ملائماً للموارد المتاحة، وقادراً على تقديم الخدمة التي نرجو الظفر بها من خلاله. لكن بما أن كل ما لدينا وما حولنا يتغير، فإن النماذج التي بنيناها من قبل تصاب بالتقادم،

وتفقد الكثير من فعاليتها وملاءمتها. ولا يظهر ذلك لكثيرين من خيارنا بسبب انشغالهم بالشأن العام. وإلى جانب هؤلاء هناك كثيرون مصابون بالكسل الذهني، فهم يتمسكون بالنماذج القديمة ويصرون عليها؛ لأنهم غير قادرين على اكتشاف غيرها. وفي أحيان كثيرة نتمسك بالنماذج الماثلة، وتلك التي أصبحت تاريخية بسبب غموض أهدافنا؛ لأن الأهداف حين تكون غامضة، فإننا نظهر بمظهر الذي لا يعرف ماذا يريد. وحينئذ تشكل الصيغ والقوالب المتوفرة ما يشبه طوق النجاة في أجواء يسودها الخوف والإبهام.

العقول الجبارة وحدها هي التي كانت على مدار التاريخ تملك البصيرة والحنكة التي تمكنها من إيجاد خيط من نور يربط الجديد بالقديم أو يدمجه فيه. إنها تقوم باستخلاص ما يشكل الروح والجوهر للنماذج والأنماط القديمة بغية سكبها في صيغ ونماذج جديدة، تتجسد فيها المبادىء العليا للأمة، كما أنها تتسم بالفعالية من خلال تمتعها بالانسجام مع المعطيات المعاصرة. إن من شروط القيام بعمل قيّم وحيوي كهذا، أن نمتلك القدرة على إدراك الفرق بين الثابت والمتغير وبين اللباب والقشور، وأن نمتلك القدرة على التفريق بين الغايات والوسائل والأصول والفروع.

إن من الممكن أن تتحول النماذج العظيمة التي أدت في يوم

ما إلى فتح العالم، وإلى احتلال مواقع الريادة إلى أدوات انغلاق على الذات وتهميش حضاري، وتصبح آنذاك بمثابة مفاتيح ذهبية نفتخر بحيازتها وحملها، لكن حين جئنا لنفتح بها أبواب النهوض وجدنا أنها لا تعمل بسبب أن الذين يضعون شروط التقدم الحضاري في عصرنا قد قاموا بتغيير الأقفال التي كانت تفتحها تلك المفاتيح في يوم من الأيام!

علينا أن ندرك على نحو جيد أن تمسكنا بالنماذج القديمة لا يؤدي إلى إيقاعنا في مشكلة استخدام أساليب وأدوات غير فعّالة فحسب، وإنما يقطع شهيتنا ويصرف انتباهنا عن البحث عن نماذج وأطر جديدة وملائمة. وهذا ما نعاني منه اليوم على عدد من الصعد وفي عدد من المجالات. وأود أن أمثّل لذلك بالمثالين الآتيين:

١- حب وحدة الأمة جزء مهم من البنية الشعورية لدى كل مسلم في كل مكان من الأرض، كما أن كثيراً من المسلمين يعلقون على الوحدة الإسلامية كل آمالهم في المنعة والنصر والازدهار. وهم دائماً يتذكرون بافتخار وسرور أيام (الإمبراطورية) الإسلامية في زمان بني أمية وبني العباس وأخيراً بني عثمان، والأمجاد التي تحققت في زمانهم؛ وهم يحلمون أن يأتي اليوم الذي ينتظم فيه العالم الإسلامي بطوله وعرضه تحت راية خلافة واحدة وفي إطار نظام سياسي واحد. ولا يخطر في

بالهم أبداً أنه قد حدثت في العالم اليوم تغيرات، وجدَّت معطيات نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية تجعل اندماج ما يقارب خمسين دولة في دولة واحدة أمراً عسير المنال وبعيد الحدوث. إن تلك المستجدات تجعل اندماج دولتين في دولة واحدة من الأمور الشاقة والتي قد تتطلب عشرات السنوات من التمهيد والتفاوض وتغيير النظم والقوانين مع قدر عظيم من حسن النية وقوة العزيمة. ولنا أن نأخذ العبرة من الدول الأوروبية، فقد مضى على الأوروبيين ما يزيد على نصف قرن من العمل المتواصل في سبيل إنجاز نوع من الاتحاد القوي، والذي وإن وحّد مواقف عدد من الدول الأوروبية على الصعيدين السياسي والاقتصادي إلا أنه ترك لكل دولة هوامش واسعة لممارسة الخصوصية والسيادة الوطنية.

والقوم هناك مقتنعون ببقاء النظم السياسية القائمة في كل دولة على ما هي عليه؛ لأن صهرها في دولة واحدة من الأمور غير المرغوبة للعديد من الحكومات والشعوب هناك.

وفي تصوري أن الطريقة المثلى في معالجة وضعية التمزق السائد في أمة الإسلام، ربما تكون في تخفيض مستوى طموحاتنا في هذا الشأن؛ لأن الطموحات التي لا يملك أصحابها الإمكانات المطلوبة للوصول إليها تضر أكثر مما تنفع، وكثيراً ما تولّد اليأس والإحباط. ثم إن علينا أن نقتنع أن تحقيق ترابط الأمة

يحتاج إلى العمل المتدرج الفعال؛ لأن السرعة في هذه الأمور كثيراً ما تؤدي إلى النكوص والانتكاس.

وبعد هذا فإن علينا أن نحاول بث الحيوية في الروابط الإسلامية القائمة وجعلها أفضل أداء، ثم أن نقوم بإنشاء أكبر عدد ممكن من الاتحادات والروابط على مستوى العالم الإسلامي، مثل الاتحاد العالمي للتجار المسلمين، والاتحاد العالمي للمهنيين المسلمين، والاتحاد العالمي للمهندسين المسلمين، والاتحاد العالمي للمرأة المسلمة.. إلخ. أضف إلى هذا ضرورة الإسراع بإنشاء السوق الإسلامية المشتركة التي من شأنها إعطاء دفعة قوية للتعاون الإسلامي على الصعيد الاقتصادي.

إن هذه الاتحادات والبنى تحتاج إلى مبادرات شعبية على مستوى العالم الإسلامي وهي قادرة بمعونة الله ـ تعالى ـ على تحقيق الكثير من توحيد كلمة المسلمين وتحقيق الكثير من المصالح المرتجاة من وراء الوحدة السياسية والاقتصادية. ومع الأيام تتطور هذه الأطر والبنى لتحول التنوع السياسي في العالم الإسلامي إلى عامل مرونة وثراء وحيوية.

٢- النماذج التعليمية على المستويات المختلفة؛ إذ المعروف أن الأمم تنشىء الكتاتيب والمدارس والجامعات من أجل نقل مبادئها وقيمها العليا من الكبار إلى الصغار، كما أنها تنتظر منها أن تؤدي دوراً حيوياً في تأهيل الفتيان والشباب لكسب

لقمة العيش وفهم روح العصر الذي يعيشون فيه، بالإضافة إلى تخريج قيادات اجتماعية تتولى القيام بدور ريادي في النهوض بالأمة وإصلاح شؤونها. وهذا يعني أن المؤسسات التعليمية بما تحويه من مناهج وأساليب تدريس وكتب وبحث علمي.. يجب أن تجهز على نحو يجعلها قادرة على تحقيق الأغراض المنوطة بها. والواقع أن المدارس القديمة قد قامت على درجات متفاوتة بما هو مطلوب منها، وخدمت المجتمعات الإسلامية في حينها خدمة مقدرة، لكن الزمان الآن قد تغير وجدَّت ظروف وأوضاع تستدعي تجديد المؤسسات التعليمية وتحديث طرق عملها لتصبح فعلاً مؤسسات لبناء الأجيال القادرة على عيش عصرها بكرامة وكفاءة.

تجد في عالمنا الإسلامي كتباً كثيرة ألفت من قرابة ثمان مئة سنة، وهي غالباً ما تدرَّس بأسلوبها القديم عوضاً أن تتحول إلى مراجع يستفاد منها عند الحاجة. ومعظم جهد الطلاب يبذل في حل طلاسمها؛ لأنها أُلِّفت لزمان غير زمانهم؛ ولذا فإنها لا تساعدهم على امتلاك رؤية كلية في التخصص الذي تشرحه بل إنها على العكس من ذلك تكوّن لدى الطلاب العقلية التجزيئية العاجزة عن الربط والتحليل والتطوير. وكثيراً ما تجد ما يدرَّس من كتب ومواد معزولاً عن أهدافه الأصلية، فقواعد العربية التي يدرسها الطالب خلال اثني عشر عاماً تقريباً لا تقيم لسانه ولا

قلمه. ومن أندر النادر أن تجد مدرسة أو جامعة تدرس مقرراً في التفكير الموضوعي، أو التفكير العملي، أو الإبداعي، كما أن من أندر النادر أن تجد مادة تركز على عيوب التفكير وأخطائه مع حاجة الطلاب الشديدة إلى كل ذلك. والشأن في العلوم البحتة لا يقل قتامة، فالطلاب في معظم المدارس لا يقومون بالبحث والتجارب الكافية في الأحياء والفيزياء والكيمياء، ولا يعرفون في كثير من الأحيان لماذا يدرسون الرياضيات! والنتيجة وضعية سيئة جداً في تسجيل براءات الاختراع، وفي التقدم التقني، وفي المحاكمة العقلية ورؤية الأشياء على الوجه الصحيح!

وهناك مؤشرات كثيرة إلى أن الطالب حين يكون في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية تكون رغبته في التعلُّم جيدة؛ وكلما تقدم في المرحلة الدراسية فقد شهية التعلم وأدركه الإحباط والقلق على المستقبل والمصير. ولا أريد أن أتحدث عن أوضاع الجامعات في العالم الإسلامي ولا عما تسفر عنه المقارنة مع جامعات العالم المتقدم، فذلك موضوع محزن للقراءة!

قد آن الأوان للتخلص من الشكليات الموروثة في التعليم والصيرورة إلى صياغة أهداف على نحو يجعل من التعليم أداة فعالة لتنمية شخصية المتعلم، وترسيخ معاني التدين الحق في نفسه، بالإضافة إلى مساعدته على تشغيل طاقاته الذهنية وتحسين مستوى الشَّغَف بالعلم لديه. وهذا كله يتوقف على التخلص من

النظرة القديمة للتعليم والتي كانت تجعله جزءاً من قطاع الخدمات، وتجعل بالتالي الاقتصاد في الإنفاق عليه أمراً مقبولاً ومحموداً.

إن تجديد النموذج التعليمي يقتضي منذ اللحظة أن ننظر إلى التعليم على أنه أفضل حقل استثماري للأموال والجهود والأوقات مما يقتضي أن ننفق عليه بسخاء، وأن نضع النظم والأُطر التي تجعل الأهالي يساهمون في التخطيط له، وفي تعزيز ميزانياته، ويساهمون في تشييد مرافقه وتحسين تجهيزاته.

تجديد النماذج يعني دائماً أننا نمتلك ما يكفي من الوعي بمتطلبات العيش في زمان تزداد تحدياته ومشكلاته، كما يعني أننا قادرون على التخلص من مألوفاتنا ومدركون لمخاطر انفصال الأعمال عن الغايات ومخاطر غض الطرف عن تطلعات الأجيال الجديدة وحاجاتها المتنامية. والأهم من كل ذلك أننا نثبت من خلال تجديد النماذج أننا لا نمنح العصمة لاجتهادات السابقين، كما أننا لا نتعامل مع الأطر والصيغ الحضارية المختلفة بعقليات مغلقة وشعارات متوارثة لم تحظ بأي اختبار.

(٩)
خدمة الحقيقة

يمكننا أن نقول: إن الإيمان الراسخ بأهمية الوصول إلى الحقيقة، وما يتبع ذلك من عمل مضنٍ للكشف عن حقائق الأشياء، إن ذلك يعد بحق سر أسرار التقدم العلمي والتقني الذي شهده العصر الحديث. إن حرصنا على تشكيل عقلية تمتلك الرؤية الإسلامية إلى جانب المفاهيم الحديثة والمعاصرة، يتطلب ـ على نحو جوهري ـ أن نعطي مسألة التأكد من صلابة الحقائق التي نشيِّد منها صرح العقل والفكر أهمية استثنائية؛ فالعقل المستنير هو ذلك العقل الذي زُوِّد بعدد كبير من الحقائق في كل مجالات الحياة، كما أنه حظي ببرمجة جيدة لتلك الحقائق، أي أنه تمكن من توزيع ما لديه من حقائق على أنساق ونماذج تحظى بالاعتراف والاحترام.

الأهم من كل هذا أن يدرك صاحب العقل المستنير أن هناك من الحقائق ما هو تحت السيطرة التامة، كما أن منها ما هو قريب من ذلك، ومنها ما هو بعيد وبعيد جداً، إنها معطيات ثقافية ألصق بالشك والاحتمال، منها باليقين والظن. وأستطيع أن أزعم أن هذه المسألة متباينة ومتشاكسة.

لخدمة الحقيقة ركيزتان: ركيزة أخلاقية وركيزة عقلية. وهما ركيزتان متلازمتان، وتوفُّر إحداهما لا يغني أبداً عن توفر الأخرى.

والإنسان المسلم هو أولى الناس باحترام الحقيقة وخدمتها والدفاع عنها، والعمل على بلورتها ونشرها؛ لأن ذلك يدخل في صلب الإيمان وفي صلب تكوين العقلية الإسلامية. وقد شددت الأدبيات الإسلامية في رذيلة الكذب حيث جعلته من بين خصال النفاق؛ لأنه يشكل اغتيالاً سافراً للحقيقة. والنصوص في ذلك كثيرة ومشهورة. وهي تتجاوز مسألة تعمد الكذب إلى مسألة الحث على الاحتياط من الوقوع فيه، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[1]. وليس للمسلم أن يروي الأخبار المكذوبة محتجاً بإلقاء العهدة على الرواة، فالكذب يجب أن يحاصر ويحارب، لا أن ينشر؛ وفي هذا يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من حدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين». وقد أقام علماؤنا الأقدمون علوماً كاملة من أجل التأكد من صحة ما نسب إلى النبي ـ ﷺ ـ من أقوال وأفعال، مثل علم الجرح والتعديل وعلم قواعد التحديث، كما وضعوا علماً مستقلاً ومتقدماً جداً هو علم أصول الفقه؛ من أجل بلورة قواعد لتفسير النصوص الإسلامية وتأطير فهمها والاستنباط منها.

إن خدمة الحقيقة خدمة راقية وسامية على مقدار ما هي صعبة وشاقة، وهي تحتاج إلى شفافية على مقدار ما تحتاج إليه من وعي وصبر وإنصاف، وتتجلى خدمة الحقيقة في الاعتراف بالجهل. وهذا من جهته يمهد لنا الطريق للتعلم من غيرنا. وهذه

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

قضية جوهرية؛ إذ إن من شروط الاستفادة من منجزات الآخرين الشعور الصادق بأن لديهم ما نحن في حاجة حقيقية إليه. كما تتجلى خدمة الحقيقة في الكف عن توليد الحجج والمعاذير لتغطية قصورنا وتقصيرنا. ويترتب على ذلك على نحو آلي تحسُّن وضع الاعتراف بالحقيقة، ووضع التعامل معها، حيث تذيع المكاشفة والمصارحة والنقد الذاتي والاجتماعي. وتقتضي خدمة الحقيقة في بعض الأحيان وضع النقاط على الحروف وتسمية الأشياء بأسمائها والكف عن خلط الأوراق والمفاهيم. وعلى سبيل المثال، فإن من مشكلاتنا ذات البعد السلوكي اختلاط مفهوم القدرة بمفهوم الإرادة، حيث إننا غالباً نقول: نحن لا نستطيع أن نفعل كذا وكذا ونحن في الحقيقة نستطيع ذلك، ولكننا لا نريد القيام به.

علينا بعد هذا وذاك ألا ننسى أن خدمة الحقيقة قد تشكل لنا ما يشبه الصدمة، حيث يكون موقفنا منها أشبه بموقف شخص يعتقد أنه فائق الجمال وإذا به يجد الكثيرين ممن يقول له: إنه إنسان عادي أو أقل من عادي! ومن الواضح أننا لا نرتاح للأشخاص الذين يحملوننا على الشك فيما نعتقد أنه حقيقة لا تقبل الجدل، كما أننا لا نرغب في سماع الأخبار أو قراءة الكتب التي تزعزع رؤانا للواقع والتاريخ والمستقبل. وأعتقد أن خضوعنا لهذه المشاعر كثيراً ما يقف عائقاً في وجه الوصول إلى

الحقائق الصافية أو شبه الصافية؛ ومن منا ذلك الذي يبدي استعداداً وتقبلاً للبحث في الأخطاء التي ارتكبت أثناء الفتوحات الإسلامية، أو الأخطاء التي ارتكبها أشخاص نعتقد أنهم نماذج رفيعة وقدوات حسنة في ماضي الأمة وحاضرها؟!

إن من الواضح أن السواد الأعظم منا غير مستعدين لتغيير مألوفاتهم والنظر فيما يعدونه مسلّمات لديهم، كما أن كثيرين أيضاً غير قادرين على ترك مسافة جيدة بين جهاز التفكير والمحاكمة العقلية لديهم، وبين ما يُعتقد أنه ساهم في تكوين ذلك الجهاز، أي القيام بتمحيص المعلومات والأفكار التي كوَّنت رؤانا وانطباعاتنا عن الحياة والأحياء؛ مع أن الوصول إلى الحقيقة لا يتم من غير توفير نشاط نقدي جيد، نحاول من خلاله اكتشاف بعض الأخطاء التي وقعنا فيها أثناء استخلاصنا للحقيقة من بين أكوام الأخبار والمعلومات المتوفرة.

الاقتراب من الحقيقة لا يتم على نحو مباشر من غير أدوات ووسائط منهجية، وقد تعود كثير منا أن يتعامل مع قضايا في غاية التعقيد بطرق وأدوات هي في غاية البساطة والسطحية، فتارة يحللون قضية كبرى مثل الفقر أو التخلف أو الفرقة بناء على مقولة لواحد من الناس، أو بناء على عامل هامشي وقعوا عليه، أو بناء على ملاحظة عابرة، أو بناء على نص صحيح، ويكون هناك نصوص أخرى في القضية، أعرضوا عنها لأنها تعقِّد عملية

التفكير والاستنباط لديهم. وهذا النوع من الإدراك والتعامل من شأنه أن يحجب المشكلة أو القضية موضع المعالجة أكثر من أن يكشف عنها أو يساعد على حلها. إن من أهم الأدوات المعرفية التي يمكن أن نستخدمها في الاقتراب من الحقيقة القيام بفحص (الفروض) الحالية التي نستخدمها في محاولة القبض على الحقيقة أو تشخيص مشكلة ما. وهذا الفحص يتطلب أولاً القيام بحصر الفروض التي اقتربنا بناء عليها من تحديد حقيقة أو قضية أو مشكلة. وبعد تحديدها ننظر هل استطاعت تلك الفروض تفسير الظاهرة وتفسير كل تجليات الحقيقة أو لا؟

إن تقييم مدى كفاءة الفروض يستهدف اكتشاف القصور فيها من أجل تلافيه، ومن أجل الوصول إلى فروض جديدة أفضل من الفروض القديمة.

إذا كانت المشكلة هي انخفاض الأداء التربوي للمدارس في بلد من البلدان، وحاولنا تحديد الأسباب التي أدت إلى وجود تلك المشكلة، فإننا قد نفترض أن السبب في ذلك هو تدني مستوى تأهيل المعلمين الذين يقومون بالتدريس، لكن سيعكر على هذا الفَرَض أننا سنجد في بلدان عديدة أن مخرجات التعليم أفضل مع أن المدرسين في ذلك البلد ليسوا أفضل حالاً من البلد موضع البحث.

وقد نفترض أن عدم قيام الأسر بدعم جهود المدرسة في

التعليم هو السبب في انخفاض أدائها، لكن سنجد أيضاً أن هناك بلداناً كثيرة تتمتع بتعليم أفضل مع أن الأسر فيها لا تقوم بشيء زائد عما تقوم به الأسر في البلد صاحب المشكلة. . . وهكذا فإن علينا أن نستعرض كل الفروض ونحاول امتحانها، وكلما كشفنا عدم صلاحية تفسير أو فَرَض صرنا إلى غيره، حتى نشعر أننا وقفنا على الفرض الذي يفسر الظاهرة على نحو أفضل مما فعله الفرض السابق. ومع هذا كله فقد نشعر أننا لم نصل إلى الحقيقة فعلاً، وفي هذه الحالة فحسبنا أن نكتشف أننا على الطريق الصحيح.

(١٠)
الإنسان العملي

تمتلكنا رغبة جامحة في معرفة الأسباب والعوامل الأكثر حسماً والأشد تأثيراً في تحقيق التفوق والنجاح. ومع اعتقادي أن الأمر لا يخلو من شيء من الغموض إلا أنه يمكن الاقتراب من ذلك وتلمُّسه قدر الإمكان. وقد كان من جملة ما انتهى إليه عدد من الباحثين والمفكرين في هذا الشأن هو: أن الإنسان الناجح يملك في داخله القدرة على أن يخطو الخطوة العملية المطلوبة نحو ما يحلم به، ويصبو إليه. ومع أن هذا لا يعد شرطاً وحيداً للنجاح، لكنه شرط مهم وأكيد، فكم فكّر الواحد منا في القيام بعمل، وخطط له، واستشار فيه، وتأكدت قناعته بجدواه، لكنه كان يفتقر إلى العزيمة على التنفيذ والبدء بالإنجاز، ثم يجد بعد ذلك شخصاً أقل منه أهلية واستعداداً قام بذلك العمل ونجح فيه، واستفاد منه!

نحن لا نبالغ إذا قلنا: إن كثيراً من تفوق الإنسان في العالم الصناعي يعود إلى هذه النقطة؛ فالبنية العميقة لعقله وتفكيره ورؤيته للأشياء تشكلت على إيقاع العمل والدأب والإنتاج، حيث يشكل الإنجاز الهاجس الأكبر لمعظم الناس هناك. وفي

المقابل فإن الإنسان في العوالم النامية والمتخلفة يملك الأفكار والأحلام والأهداف التي تتطلب منه القيام بشيء ما، لكن تركيبة شخصيته وطبيعة البيئة التي يعيش فيها لا تساعده على ذلك، حيث يقتات الناس على الكلام والأمنيات وحيث كل شيء يدفع بهم نحو الوراء؛ لم تكن أمة الإسلام في يوم من الأيام في حاجة إلى امتلاك الروح العملية والفكر الإنجازي والفرد المنتج أشد من حاجتها اليوم، حيث إن الهوة التي تفصل بينها وبين الأمم الصناعية تزداد اتساعاً على نحو مطرد؛ ولن تجد مخرجاً من هذا إلا من خلال تحسين مستوى الإنتاجية لدى كل واحد من أبنائها وفي كل المجالات؛ لكن ينبغي أن يكون واضحاً أن المسألة تعود في نهاية الأمر إلى كل فرد ليتدبر أمره. وإذا لم نستطع بوصفنا أفراداً تغيير أسلوبنا في التعامل مع المهام والواجبات والتطلعات والطموحات، فإن الأمل في تقدم الأمة سيكون ضرباً من الأوهام!

ربما كان ضعف ثقتنا بأنفسنا هو الذي يقف حائلاً دون تنفيذ ما نفكر فيه، فضعيف التجربة يرى نفسه غالباً في وضعية أقل مما هي عليه في الحقيقة، وهذا يجعله يخاف من الإقدام، لأنه غير متأكد من نتائجه، وأقول لهذا الصنف من الناس: إن هذه الحالة لا تزول إلا من خلال العمل، فالذي يخاف من السباحة والنزول إلى الماء لا يستطيع التخلص من رُهاب الماء إلا من خلال

محاولات تعلم العوم في المياه الضحلة. والذي يخشى من ركوب الدراجة ليس أمامه إلا أن يحاول ركوبها متحملاً التعثر والوقوع والاصطدام بالجدران إلى أن يمتلك مهارة قيادة الدراجة وهكذا..

لست أبالغ إذا قلت: إن السواد الأعظم منا لم يكتشف ذاته بعد، ومعظم إمكاناته وطاقاته ما زال كامناً ينتظر التحرير والتنقيب. وقد قال أحد المفكرين: «سندهش من أنفسنا عندما ننطلق». من خلال العمل والعمل وحده نستطيع معايشة الواقع وكشف أسراره وخباياه، حيث إن لكل مهنة أسرارها، ولكل مجال مخبآته.

نعم لن يكون الطريق نحو ما نريد معرفته آمناً، وسنظل نشعر بعدم اليقين، وأننا نخاطر ونغامر، ولكن من خلال العمل والممارسة تصبح لدينا حاسة جديدة لحساب المخاطر وتخمين حجم المغامرة.

سمات الإنسان العملي:

١- لا ينتظر الإنسان العملي الحصول على الكثير من الدراسات والتفاصيل حتى يقوم بما يرغب القيام به، وإنما يكتفي منها بما يشعر معه أنه حصل على القرار الصحيح، ويشعر أنه يمتلك الأدوات والأساليب التي تمكنه من تنفيذه. هذا لا يعني كراهية التنظير والشفافية نحو المسائل والقضايا المعقدة،

فذاك مرض فكري؛ لكنه يعني عدم الضياع في تفصيلات وتعليلات لا يحتاجها الإنسان العملي في حركته اليومية؛ إنه يميز على نحو جيد الآفاق الممتدة التي يحتاج المنظر والمخطط إلى ارتيادها واكتشافها، وبين المعلومات الأساسية والتفصيلات المحدودة التي لا يمكن القيام بعمل راشد وجيد من غيرها.

٢- لا يلتفت الإنسان العملي إلى المخذلين والمثبطين ممن يعتقدون أنهم خلقوا للكلام أو صناعة الأفكار، كما أنهم يشعرون بنوع من الاستخفاف بمن يرون أنفسهم جنود تنفيذ؛ فالحقيقة أن الأمم لا ترتقي أبداً من خلال الأفكار المجردة، وإنما لا بد معها من الأعمال التنفيذية التي يقوم بها الأفراد والمؤسسات في كل مجالات الحياة؛ بل أقول: إن التقدم الفكري كثيراً ما يكون متوقفاً على ما يتم إنجازه في الميادين العملية، حيث يتم فيها الامتحان الحقيقي لكل الأفكار، ومنها تنبثق كل الملاحظات التي تغذي الفكر والتي تساعده على تعديل طروحاته وتطوير مقولاته؛ فللعاملين فضل على الأمة عامة وعلى المفكرين خاصة.

٣- لا يكون المرء عملياً بالمعنى الصحيح للكلمة إذا لم يحرص على القيام بكل ما يعدُّ ضرورياً لتسهيل عمله؛ إذ ليس المطلوب أن يمكث الإنسان وقتاً طويلاً في العمل، وإنما الحصول على أفضل نتائج ممكنة من وراء الجهد المبذول. وإن

أهم ما يسهّل العمل ويجعله مثمراً هو القيام بتنظيم الشأن الخاص وتنظيم الوقت والعلاقات مع الناس بالإضافة إلى التعرف على الطرق القصيرة الموصلة إلى الأهداف، أو ما يمكن أن يسمى باقتصاد الجهد. وإذا تأملنا في هذا الشأن وجدنا أن أكثر الناس يجدون صعوبة في القيام بهذه الأمور لعدم تعودهم إياها، أو لأنهم لا يعرفون العائدات الضخمة التي تعود عليهم من ورائها.

إن كثيرين منا يظنون أن في كل حركة بركة؛ ولذا فإنهم يتحركون ويتعبون كثيراً، ولكن الثمرات التي يحصلون عليها دائماً متواضعة! قليل من التخطيط والترتيب والتنظيم في بداية كل يوم يجعل العمل أكثر سلاسة وأعظم نفعاً. وهذا ما يفعله في الحقيقة معظم الأشخاص الناجحين.

٤- الإنسان العملي مسكون بحب العمل، فهو لا يعمل ويكدح من أجل نتائج العمل فحسب، وإنما يقوم بذلك لأنه أولاً يشعر بالمتعة والرضا وتحقيق الذات. وإن أولئك الذين يعملون من أجل حصد المكاسب فقط، كثيراً ما يفتقرون إلى الخصائص الأساسية التي تساعدهم على الاستمرار في العمل في الظروف الصعبة.

الإنسان العملي إلى جانب هذا لا يهتم بالثمرات التي سيحصل عليها بمقدار اهتمامه بتأدية عمله بطريقة صحيحة ومتقنة. إن اتباع الطرق الصحيحة في الإنتاج نابع من أخلاقية

عميقة وعادات متأصلة في شخصيته، مما يرسخ ثقة الناس به وبأعماله ومنتجاته.

٥- يملك الإنسان العملي خلق المثابرة ومواصلة العمل في كل الظروف. ولو أننا نظرنا في حياة الناجحين والمتفوقين، وكل أولئك الذين قدموا إنجازات عظيمة، لوجدنا أنهم استمروا في العمل عقوداً عديدة من الزمان، وهم كلما تقدموا في السن زادت سيطرتهم على أنفسهم، وزاد تحكمهم في رغباتهم، مما يجعلهم أقدر على مواصلة العمل والعطاء. وإذا تأملنا في حياة كثير من الناس العاديين وجدنا أنهم يملكون الكثير من المؤهلات التي تجعلهم في المقدمة، لكنهم محرومون من سمة المثابرة والمتابعة؛ إنهم قصيرو النَّفَس ومتقلبو الأمزجة.

هذه الأخلاق والسمات ليست مواهب خَلْقية فطرية، وإنما يكتسبها الإنسان العملي من خلال مجاهدة النفس وحملها على المكاره، ومن خلال التأقلم والتكيف مع متطلبات الإنجازات الكبرى. وكل واحد منا مطالب اليوم بأن يمتلك النزعة العملية، وأن يتخلق بأخلاق الأشخاص العمليين حتى نستطيع أن نجاري الأمم المنتجة والمتقدمة. ومن أخلص في الطلب جاءته من الله ـ تعالى ـ المعونة.

(١١)
الانغلاق مصدر جمود وإفساد

يملّكنا المنهج الرباني الأقوم الأرضية الفكرية والمعايير العقدية والأخلاقية التي تحدد علاقتنا بالكون والحياة والأحياء. وهذا الذي ملكنا إياه عظيم الأهمية في العصر الحديث، حيث اختلطت الرؤية لدى أمم الأرض، وبدأت أمواج الاضطراب تجتاح كل شيء، وكاد الزمام يفلت من يد الساسة والمفكرين والفلاسفة... ولا يدري أحد إلى أين ستصير الأمور في النهاية؟!

نحن نملك على مستوى الأصول والعقائد نظماً مغلقة تتأبى على التفاعل مع البيئة المحيطة؛ لأنها تشكل قوام رؤية المسلم للحياة وقوام علاقته بالله ـ جل وعلا ـ وبإخوانه المسلمين والناس أجمعين. ومن ثم فإن انغلاقها يشكل ضمانة أساسية لثباتها واستمرارها وفاعلية عملها. وحين ينفتح النظام العقدي على الواقع، فإنه لا ينفتح من أجل الانسجام معه ومراعاته، ولكن من أجل أن يصبح الواقع أكثر صلاحية لتجلياته وشرحه، أي من أجل تألق النظام وفاعليته، فالمسلمون اليوم يتخذون من المعارف الطبية والفلكية ـ مثلاً ـ أدلة جديدة على وحدانية الله

تعالى وقدرته وبديع صنعه، ونظام العبادات هو الآخر نظام مغلق، وهو حين ينفتح على الواقع ينفتح عليه من أجل تمكين المسلم من عبادة الله ـ تعالى ـ على وجه لا يوقعه في المشقة والحرج، وهكذا فقد أبيح للمسافر الفطر في رمضان وجمع الصلاة وقصرها، كما أنه أبيح له التيمم عند فقد الماء، كما أبيح للمريض عند عدم القدرة على استخدامه... وما ذلك إلا لأن النظم المغلقة لا ترمي إلى خدمة الواقع أو إصلاحه، وإنما تستهدف صياغة الإنسان على نحو متميز وإرشاده إلى ما عليه أن يفعله في كل الظروف والأحوال.

ومن وجه آخر؛ فإن المنهج الرباني الأقوم علمنا بطرق عديدة كيف نفتح على الواقع وعلى الناس، وكيف نعرض أفكارنا وأعمالنا للنقد والمراجعة والتطوير في ضوء الخبرة المتراكمة والنتائج والمعطيات المتوفرة؛ لأننا من خلال ذلك نتأكد من مدى التزامنا بالثوابت وبالخطوط الإرشادية العريضة، كما نتأكد من أن ما نستخدمه من أفكار ونظم ووسائل وأدوات في تنمية الحياة يعمل على الوجه المطلوب ويؤتي ثمراته المرجوة؛ وذلك نابع من مسلَّمة عامة، هي أن كل نظام لا يستغني بنفسه، ولا يستطيع السيطرة على كل عناصر بيئته. وأن كل نظام مصمم لخدمة غيره يجب أن يخضع للتقويم، وأن يستجيب للمراجعة، بل أن يكون وجوده كله مرتهناً لنجاحه في أداء وظائفه، وللنتائج

التي تتولد من تطبيقه واستخدامه، وفي هذا الإطار نفهم معاتبة القرآن الكريم للنبي ـ ﷺ ـ على بعض اجتهاداته، من نحو قبوله الفداء من أسرى بدر، وإذنه للمنافقين بالتخلف عن بعض الغزوات، وإعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم، كما نفهم تنبيه القرآن الكريم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على ما بدر من بعضهم، ونقده لبعض تصرفات الأعراب والمنافقين وغيرهم مما هو معروف مشهور.

ليس في الإسلام أسرار ولا علوم خاصة تُلقَّن لفئة من الناس، وتحجب عن فئة أخرى إلا ما تقتضيه الشروط الفنية للتثقيف، وهي شروط عامة موجودة عندنا وعند غيرنا. كما أنه ليس لأي جهة مهما كانت أن تدعي أن أعمالها غير قابلة للمناقشة والمراجعة، لأنها تتمتع بحصانة أو عصمة؛ فالكل يناقِش ويناقَش، وعلى كل واحد أن يعرض ما لديه، ويستمع لما لدى الآخرين بشفافية كاملة. ويمكن أن نعمق الفهم لمسألة الانفتاح على الواقع والانغلاق عنه من خلال الملاحظتين التاليتين:

١- يمكنني القول: إن الانفتاح يشكل الوضعية الطبيعية والأساسية، فهو الأصل في حياتنا؛ فنحن في الحقيقة لا نستطيع أن ندرك جوهر ما لدينا، كما لا نستطيع إدراك أوضاعنا الحقيقية وحجم مشكلاتنا إلا من خلال معرفتنا بما لدى الآخرين من خير وشر، ونجاح وإخفاق، ولذا قالوا: إن الوعي بالذات كثيراً ما يكون فرعاً عن الوعي بالآخر.

حين نعرض أفكارنا وأعمالنا على الآخرين فإننا نكون قد عرَّضناها للنقد والتقويم، أي أوجدنا قناة للتغذية المرتدة، حيث تصبح هناك إمكانية للاستفادة من خبرات الآخرين وملاحظاتهم. وحين ننفتح على الواقع بمتطلباته وتغيراته نكون قد جعلنا أنفسنا في وضعية تستحثنا على التكيف المستمر. والتكيف هو أحد السمات الأساسية للكائن الحي. وما الموت إلا نوع من عجز الجسد عن التكيف مع الطوارىء والتغيرات الجديدة. والكبار في السن تتدهور حالتهم بسبب ضعف حواسهم التي تتيح لهم التواصل مع الناس ومع الواقع على النحو المطلوب.

لا ريب أن الانفتاح شاق ومكلف ومزعج، لكنه يعد من أهم الوسائل في ترقية الذات والتخلص من العاهات والمشكلات الآسنة. الانفتاح وسيلة تطهير؛ والبيت الذي يتعرض للشمس من خلال فتح أبوابه ونوافذه، يتخلص من العفونة والهواء الفاسد. وهكذا أفكارنا والنظم التي تسيّر حياتنا تصبح أكثر حيوية وأكثر استقامة ونقاء من خلال جعلها قابلة للنقد والمراجعة.

٢- الانغلاق في تقديري هو الحالة التي ينبغي أن تظل طارئة! لأنه خلاف الأصل. ويجب أن نحذر ونحترس وننغلق في الأحوال الخطرة وغير العادية، تماماً كما يفعل الناس حين تهب العواصف والزوابع، فإنهم يعمدون إلى إغلاق كل منفذ في بيوتهم، ولكن ما أن تعود الأمور إلى طبيعتها حتى يعودوا إلى فتح النوافذ من جديد.

المشكلة أن بعض الناس يظن أنه في حالة طوارىء دائمة، فهو يقضي عمره وهو خائف من الآخرين وخائف من الانفتاح وعرض ما عنده، كما أنه خائف من أن يأخذ من غيره أي شيء؛ وهو في كل ذلك يظن أن الانغلاق يحميه من الفساد ومن الفتن ومن الذوبان في الآخر، وهو في معظم ذلك واهم أو مبالغ؛ فقد عرفنا من سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق أن الانفتاح قد يعرض الناس فعلاً إلى تشويش مفاهيمهم، وقد يؤثر في أخلاقهم وسلوكاتهم؛ لكن من الذي يقول: إن العزلة لا تسبب لنا أي أذى؟! العزلة تعرضنا إلى التحلل الذاتي والفساد الداخلي والترهل في كل شيء، حيث تصبح تغذية العقل والروح بالمعطيات الجديدة شبه معدومة، ويسود اجترار الذات والدوران في حلقات مفرغة. ولنا عبرة في أفريقيا، فهي أقل القارات اتصالاً بتيارات الحضارة، وأقلها تعرضاً لهجمات العولمة، ومع ذلك فإن فيها من المفاسد وسوء الأوضاع والأحوال ما يجعلها في وضعية تشبه الكارثة، حيث الغرق الوشيك في مستنقعات الحروب الداخلية والفقر والجهل والأمراض الفتاكة والانحلال الخلقي، حقاً إنها ـ في حسابات البشر ـ قارة من غير أي مستقبل!

ومن المشاهد أن كثيراً من نظم التعليم أخذ يتآكل من الداخل، وصار مدرسوها يبدون وكأنهم يجاهدون في غير عدو،

وذلك حين أخذت إدارة المدارس التي تطبقها على عاتقها تنفيذ تعليمات محددة في المناهج والمواد والكتب الدراسية والامتحانات غير آبهة بالانفتاح على الواقع، وغير شاعرة بضرورة تأهيل الطلاب لعيش زمانهم بفاعلية وكفاءة؛ إنهم يتعاملون مع نظم التعليم على أنها نظم مغلقة قائمة بذاتها وليس على أنها نظم وجدت لتخدم غيرها!

ومن المشاهد كذلك أن كثيرين من الناس يحملون أفكاراً إصلاحية قد تكون جيدة، ولكن لأنه لا يتاح لهم الجهر بها ـ لأسباب مختلفة ـ فإن تلك الأفكار تتعرض لأحد أمرين: إما الذبول والانطفاء كما يجري لورقة قطعت من غصنها الذي تتغذى منه، وإما الاعوجاج والانحراف إلى درجة أنها صارت في حالة تثير الضحك والإشفاق.

ومن هذا الباب فإن كل الأعمال والإصلاحات التي توكل إلى لجنة أو فئة محدودة، ويُهمش وعي الناس بها تتعرض هي الأخرى إما إلى الذبول والاضمحلال وإما إلى الاستغلال والمتاجرة مِن قِبَل مَنْ أُوكلت إليهم. نعم لا بد لكل عمل من أن يباشره أشخاص محدودون يعدونه قضيتهم الأساسية، ويكونون على درجة جيدة من الاهتمام والخبرة بتنفيذه؛ لكن هذا لا يسوغ جهل باقي الناس به. ودور الناس ليس تنفيذ كل شيء، ولكن التدخل لمنع الانحراف والتمادي في الخطأ.

مع كل ما سبق فإني أعتقد أن الانفتاح الكامل قد لا يكون ممكناً إلا في حالة وجود تربية متميزة جداً ووعي عال جداً، وبما أن هذين لا يتوفران في معظم الأحيان، فإن شيئاً من الانغلاق والرقابة على منتجات الحضارة يظل شيئاً مطلوباً، لكن علينا ألا ننسى أن ذلك لا يعبر عن الأصل، وهو ألصق بالضرورات؛ والضرورات ـ كما يقول الفقهاء ـ تقدَّر بقدرها.



(١٢)
التقدم الحقيقي

صارت كلمة (التقدم) هي اللازمة التي لا يملُّ الناس من تكرارها في كل مكان من الأرض. ولا يكاد يساوي انتشار الكلمة سوى الخلاف في تفسيرها وشروط تحققها، والتغييرات التي يجب إحداثها من أجل ذلك.

ولا ريب أن مجرد الإحساس بضرورة التقدم يشكل خطوة في طريق طويلة. وبعد ذلك تمضي كل أمة لتحقق التقدم وفق عقيدتها ورؤيتها للحياة، ولكن مهما بلغ التنوُّع في الخلفيات الثقافية والمنطلقات العقائدية للناس، يظل هناك ـ ولا شك ـ الكثير من الأسس والقواعد والشروط المشتركة والتي لا يحدث أي تقدم ذي معنى من دونها.

وقد وقعت أمة الإسلام في بلبلة عظيمة في هذا الشأن؛ فهي بما تملكه من عقائد ومبادىء مؤهلة لبلورة رؤية واضحة وجيدة للتقدم، لكن أوضاعها غير المواتية على عدد من الصعد الحضارية جعلتها غير قادرة على أخذ زمام المبادرة وتجسيد مبادىء التقدم في حياتها العامة، فوقعت في فخ التبعية للقوى العظمى والتي تختلف في رؤاها الحضارية عنا اختلافاً ليس باليسير؛ مما أدى إلى ارتباك وعينا واختلاط معاييرنا إلى حدود مخيفة!

وبات علينا أن نبذل الكثير من الجهود الفكرية وأن نقوم بالكثير من الحوارات على مستوى النخبة وعلى المستوى الشعبي كي نضع النقاط على الحروف في مسائل التقدم الأكثر حيوية والأكثر محورية. وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

١- لكل إنسان قيمه التي يؤمن بها، والتي توجه سلوكه، وتحدد مواقفه، ومع أنه لا يخلو شبر مسكون من الأرض من قيم، لكن ليست كل القيم تساعد حامليها على التقدم، فهناك قيم كثيرة تعوق الناس عن إصلاح أحوالهم والتخلص من مشكلاتهم. والمشكلة أن قدرة الإنسان على رؤية القيم التي تصلح شأنه محدودة، فهو في حقيقة الأمر لا يرى من القيم إلا ما يسمح به المجتمع بنظمه وأعرافه وتقاليده... ولذا فإن العيش في مجتمع متقدم يجعل المرء يتقدم من غير بذل جهود استثنائية، كما أن العيش في مجتمع متخلف يجعل المرء ينحط وينسفل مهما كانت مقاومته شديدة؛ ولكل قاعدة استثناءاتها. ولذا فإن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حين هاجروا إلى المدينة لم يكونوا يرومون ـ على نحو جوهري ـ التخلص من عسف قريش، وإنما إنشاء مجتمع إسلامي يغذي أبناءه بالقيم الإسلامية، ويحميهم من الانحراف والضياع. ومن هنا أيضاً جاء الحث على اتخاذ الصاحب الصالح؛ حيث يشكل الأصدقاء الصالحون للمرء بيئة ضيقة أنقى وأفضل من البيئة الاجتماعية العامة؛ ولهذا كله كان

الاستثمار في بناء المجتمع وإصلاحه ضخم النتائج وعظيم الآثار.

٢- لا يمكن تسيير الحياة الشخصية الخاصة للواحد منا إلا من خلال القيم التي يؤمن بها، حيث تُضرب الحجب بين الأعراف والتقاليد والقوانين وبين السلوك الخاص. وعلى مقدار التفاوت بين السلوك الاجتماعي للمرء وبين سلوكه الشخصي الخاص يكون حجم المشكلة الأخلاقية، فالذي ينافق لمجتمعه يكون ظاهره خيراً من باطنه، وتكون القيم التي تشكل سلوكه في حالة من الوهن والتدهور. وفي المقابل فإن من أعظم ما يدل على فضل المسلم وخيريته أن يكون باطنه خيراً من ظاهره، وإن كان هذا الصنف في الناس قليلاً.

القانون والنظام أمران مهمان في حياة الأمم، ومن غيرهما يصعب وجود تقدم حضاري، لكن القانون بطبيعته يعد أداة قاصرة في تسيير الحياة، حيث ينطوي على فراغات وثغرات كثيرة، كما أنه يظل قابلاً للتأويل والتفسير المختلف والتحايل، وهو على كل حال عاجز عن أن يمد سلطانه على السلوكات المنزلية الخاصة للناس. القيم الخيرة وحدها هي التي تحول دون ذلك، حيث تحرِّض على نوع من التشغيل الذاتي والرقابة الداخلية والمبادرة الحرة. وحين تكثر القوانين والنظم من غير أساس قيمي وأخلاقي، فإن المشهد الاجتماعي والإداري يكون مأساوياً يدعو إلى الرثاء!

إن من المؤسف حقاً أن كثيراً من المثقفين ضعيفي الصلة بالثقافة الإسلامية يسهمون في إضعاف الجانب الخلقي لدى الناس، وكأن ما فعلته الأوضاع الصعبة بنا من تدهور قيمي لا يعد كافياً في نظرهم؛ إنهم يلقون في روع الناس بطرق مختلفة أن الأخلاق التي يعتقدون أنها تؤمِّن لهم السعادة الأخروية لا تسعفهم في تحقيق النجاح الدنيوي، بل يقولون للناس: إن عقائدكم وأخلاقكم وقيمكم جزء من ماض انتهى، وعليكم أن تتطلعوا إلى المستقبل بعيون الغرب الظافر والناجح والقوي! وما دروا أنهم بذلك يجعلون الناس معلقين فوق هوَّة سحيقة، وقد حرموا من الأخلاق الإسلامية وأخلاق الحضارة الحديثة! وهذا ما بدأنا نلاحظه لدى شرائح من الأجيال الجديدة التي رضعت من لبان العولمة، حيث نرى فتياناً يقدمون نماذج مخجلة في شدة الفوضى واللامبالاة والاستخفاف بأي شيء مقدس، إلى جانب اليأس من المستقبل ومع ألوان من الانحراف السلوكي. . . إنه تقدُّم في اتجاه الهاوية والهمجية والعدمية، ولن تظهر آثار ذلك إلا حين يصبح أولئك الفتيان في مقام الآباء والمعلمين والموجهين. . . !

إننا لا ننكر أن لدى الغرب بعض القيم التي يجب أن نتعلمها منه، لكن اقتباس القيم لا يتم من خلال القص واللزق، وإنما من خلال تطوير فلسفة جديدة تقوم بدمج القيم الجديدة في منظومة

القيم الإسلامية لا عن طريق التعسف والهدم، ولكن عن طريق توسيع مدلولات القيم الإسلامية وتجديد مقولاتها وطروحاتها والتركيز على بعض مفرداتها.

٣- لن يحدث تقدم حقيقي، ولن نحظى بمعاصرة حقيقية ما لم يسيطر عالم القيم والمثل على عالم الرغبة والشهوة والمصلحة والمنفعة، وما لم يحدث امتثال قوي وواسع للنظام والقانون والإرادة الاجتماعية المعبرة عن هوية الأمة ومصلحتها العامة. نحن بني البشر لنا اهتمامات ورغبات ومصالح متفاوتة وأحياناً متضادة، وإذا أراد كل واحد منا أن يفعل ما يرغب فيه، فإننا نزج أنفسنا في أتون صراع يهون أمامه صراع الوحوش في الغابات. القيم وحدها هي التي تخفف من حدة ذلك الصراع، وتنقله إلى ساحة التنافس الشريف القائم على العدل وتكافؤ الفرص والمؤطر بالأهداف الاجتماعية العامة، كما أنها تخفف من حدته عن طريق الإحسان والتبرع والتسامح وطلب المثوبة من الله ـ تعالى ـ والنظر إلى مكاسب الدنيا وملذاتها على أنها شيء مؤقت وزائل وحين تضعف القيم التي توجه الرغبات وتحدد مسارات التفوق، فإنه لن يحول بيننا وبين الانحطاط ما نملكه من علوم وتقنية وثروات وخبرات. وإن كل الأمم التي انهارت عبر التاريخ أصيبت في أسس وجودها أولاً من خلال انهيار المنظومة الخلقية ثم تداعى البناء كله. وتأمّل إن شئت في مأساة خروج المسلمين

من الأندلس وفي أوراق انهيار الدولة الأموية والعباسية والعثمانية لترى صدق ما نقول!

٤- إذا تساءلنا: ما الذي يفرق بين الرجل الأخلاقي والرجل غير الأخلاقي ما دام كل واحد منهما ينتمي إلى عقيدة واحدة ونشأ في بيئة إسلامية واحدة؟

فإننا سنجد الجواب يتمثل في فارقين:

الأول: هو السلم القيمي الذي يتصرف كل واحد منهما على أساسه، والحقيقة أن ارتقاء الإنسان ونهوضه وتقدمه لا يعدو أن يكون تجسيداً لترتيب جديد للقيم التي يؤمن بها، تماماً كما أن انحطاط الإنسان وانحرافه يكون صدى لتبدل سيِّىء حدث في ترتيب القيم التي توجه سلوكه. وعلى سبيل المثال فإن المرء حين ينتقل من صفوف العاصين إلى صفوف الصالحين، فإن ذلك يكون تعبيراً عن تقدير جديد لطاعة الله ـ تعالى ـ ورجاء ثوابه، وتقدير جديد للنعيم الأخروي، وهذا يجعل التلذذ بأنواع الشهوات المختلفة والانقياد للأهواء والأنس بقرناء السوء. . . يتدنى في سلّمه القيمي، ويخرج من دوائر شغفه واهتماماته، ويفقد هيمنته عليه.

الثاني: فاعلية القيم في توجيه السلوك؛ فإذا كان كل مسلم يجب أن يحافظ على صلاة الجماعة، ويغبط من يفعل ذلك، ويلوم نفسه على التقصير فيه، فإن الفارق يكون آنذاك بين من

يحرص على صلاة الجماعة وبين من يضيعها يعود إلى مدى فاعلية هذه القيمة ومدى تأثيرها في حمله على المحافظة على الذهاب إلى المسجد في كل الظروف وكل الأوقات. وهذه الفاعلية تتولد من يقظة وعي المسلم ومن رسوخ هذه القيمة في نفسه، بالإضافة إلى وضوحها وما تقدمه البيئة الاجتماعية من معونة ومعاضدة.

لا بد هنا من أن نوضح أن الخضوع التام لمدلولات القيم الخيرة التي نؤمن بها ليس سهلاً، فهو يتطلب نوعاً من المجاهدة المستمرة للمغريات والشهوات والأهواء وللشره نحو الوصول إلى مصالح لا حدود لها.

ومن هذا الأفق يمكن القول: إن الالتزام بأي فضيلة لا يتم إلا من خلال المقاومة للرذائل التي تحيط بها، مما يعني أن الإنسان الفاضل هو رجل انتصارات، لا يفتأ ينتقل من معركة ظافرة إلى أخرى مظفرة. وإذا تأملت في بعض صفات (عباد الرحمن) الواردة في آخر سورة الفرقان وجدت أنهم حتى يمشوا على الأرض هوناً، فإن عليهم مقاومة ميل النفوس إلى الكبر والغرور والتجبر الذي تنجذب إليه النفوس. وعليهم حتى يردوا على خطاب الجاهلين والسفهاء بالقول الحسن أن يتخلقوا بالصبر والحلم وهكذا..

٥- إذا سلمنا أنه لا بد من إعادة ترتيب السلم القيمي في نفوس أبناء الأمة، فإنه لا بد من أن نعتمد تربية جديدة، تدفع

ببعض القيم الأساسية على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي إلى المقدمة، فنحن حتى نبلغ المكانة التي تليق بأمة الإسلام في حاجة إلى أن يحمل كل مسلم قيم التقوى والجدية والمثابرة والنزاهة والإتقان وحب النظام والتفوق... بالإضافة إلى بعض القيم الاجتماعية المهمة مثل التعاون والتسامح والعدل والإحسان والإحساس بالآخرين واحترام خصوصياتهم... وهذا يتطلب أن نتخلص من بعض الأمراض النفسية والخلقية والاجتماعية التي تعوق تقدمنا ونهوضنا من مثل المطالبة بالحقوق ونسيان الواجبات والزهد في العلم وقصر النفس في العمل والمسارعة إلى الإرواء المباشر للرغبات، بالإضافة إلى انتشار الفساد الإداري والرشوة والظلم، وعدم تكافؤ الفرص، والفردية والفوضى والكسل.

إن التقدم الحقيقي في الرؤية الإسلامية هو تقدم روحي أخلاقي عقلي اجتماعي، وتقدم العمران يجب أن يتم دائماً تحت غطاء التقدم القِيَمي، وإلا كان تقدماً للأشياء على حساب تأخر الذي سيستفيد منها، وذلك ما لا يقبل به أي عاقل، ولن يحصل التقدم المنشود إلا إذا أخذنا على يد أولئك الذين يدمرون المجتمع ويقوضون أركان حياتنا الروحية من خلال الأنانية التي جعلت منهم ذئاباً تنهش في لحوم الضعفاء والمهمشين، وهذا من الأمور التي لا نعرف إلى الآن كيف سنقوم بها؟!!

(١٣)
مقاومة الإخفاق

ر في عصور الانحطاط يغلب على الناس التفكير الجبري، حيث يشعرون أنه لا حول لهم ولا طول، وحيث يشعرون بانسداد الآفاق وضيق المخارج. أما في عصور الازدهار فإن كل شيء ينتعش، حيث تسيطر على الناس المفاهيم والمشاعر التي تحفزهم على مقاومة الإحباط، وتلك التي تحدوهم إلى تلمس آفاق جديدة للحركة وحقول جديدة للممارسة. وإن مما يذكر للحضارة المعاصرة أنها وفّرت الكثير من المفاهيم التي تساعد المرء على تحليل مشكلاته والوقوف على أوجه قصوره الذاتي. كما وفرت الكثير من الطرق والأساليب التي يمكن أن تستخدم في تجاوز العقبات وحل المشكلات.

عقيدة الإسلام توفر بنية عقدية ونصوصية ممتازة للاستمرار في طلب النجاح ونيل شرف المحاولة، لكن معظم الناس لا يستفيدون من المبادىء الكبرى إذا لم تتجسَّد لديهم في نماذج، وإذا لم تشرح من خلال مفاهيم جزئية وطرق عملية. وهذا ما أنجزه الناجحون والمبدعون والمخترعون في العصر الحديث من خلال دأبهم في البحث وإصرارهم على الوصول إلى نتائج جيدة ومقاومتهم لليأس والإحباط. وقد أشاعوا حقيقةً في العالم الروح

التي عبر عنها أحد الزعماء حين قال: إن الإجابة الوحيدة على الهزيمة هي الانتصار.

وهذه بعض النقاط التي تساعدنا على الوقوف في وجه الإخفاق:

١- أول خطوة على طريق مقاومة الإخفاق أن يدرك المرء أنه مخفق، وأن النتائج التي حصل عليها هي أقل بكثير مما كان في إمكانه أن يصل إليه. وليس هذا بالأمر اليسير؛ حيث إن كل واحد منا يعرف أشخاصاً كثيرين لا يعرفون حقيقة ما هم عليه من إخفاق وخسران وتخلف، إنهم يفقدون المرآة التي يرون فيها أنفسهم، ويفقدون الحسّ الذي يساعدهم على تحديد موقعهم على خارطة الخير والشر، وتحديد موقعهم بين الأقران والنظراء على حد قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ ﴾[1].

لا ريب أن الإخفاق درجات، فالطالب الذي أخذ صفراً في مادة مخفق. والذي أخذ ثلاثين درجة من مئة مخفق. والذي كان يسعى لأن يكون الأول بين زملائه ثم كان ترتيبه الخامس مخفق... إلخ؛ كل هؤلاء من المخفقين، لكنْ هناك فرق بين إخفاق وإخفاق. ولا بد من القول: إننا في تقويمنا لنجاحاتنا وإخفاقاتنا مدينون للمجتمع الذي نعيش فيه، فهو الذي يحد

(١) سورة الكهف: ١٠٣، ١٠٤.

العتبة والسقف، أي أفضل ما يمكن أن نبلغه وأسوأ ما يمكن أن ننحدر إليه؛ ولهذا فربَّ ناجح في معايير بيئة هو في معايير بيئة أخرى مخفق كالذي يدرس في جامعة ضعيفة، ثم ينتقل إلى جامعة قوية جداً. هذا كله يعني أن النجاح والإخفاق شيئان نسبيان.

٢- لا بد أن ننظر إلى الإخفاق نظرة جديدة إذا ما أردنا مقاومته. وهذه النظرة يجب أن تقوم على عدد من المفاهيم، منها: أن الإخفاق شيء طبيعي في الحياة، وهو شيء مشتق من القصور البشري، فنحن لا نعرف أنفسنا تمام المعرفة، ولا نستطيع على وجه التحديد تقدير حجم إمكاناتنا الكامنة، كما أننا لا نستطيع أن نخمِّن على النحو المطلوب طبيعة الظروف التي سننفذ فيها مشروعاتنا ولا العقبات التي ستواجهنا. إننا نعمل تحت تأثير عدد من النظم المفتوحة، والتي تأتينا دائماً بالمفاجآت؛ ولهذا فإنه لا ينبغي أن نتعجب ممن يخفق ولكن ممن ينجح بصورة دائمة. ولكن هل هناك فعلاً من لم يذق طعم الإخفاق؟ لا أظن ذلك، ففي حياة كل الناجحين وكل الأبطال نقاط ضعف ونتائج سيئة لم يكونوا يتوقعونها، لكن الوضعية العامة لهم تغطي على ذلك، وتجعل آثاره غير منظورة.

من المفاهيم التي يجب أن نمتلكها بالنسبة إلى الإخفاق: أن الإخفاق يدل على فضيلة المحاولة والشروع في عمل ما، حيث

إن كثيراً من الناس يعيش في حالة من البؤس، لا لأنه أخفق، ولكن لأنه محدود الطموحات، مشلول الإرادة، محروم من نيل شرف التجربة والمحاولة! علينا ونحن في حالة الإخفاق أن نتخلص من الهالة الشعورية السيئة التي تطبق علينا نتيجة شعورنا بضعف الكفاءة وبالتفاؤل. وهذا لن يكون إلا بالانصراف مباشرة إلى التفكير في النهوض بعد كل كبوة والشروع في عمل جديد نعوِّض به ما فاتنا. إن أي هزيمة يمكن تجاوزها ـ مهما كانت ـ إذا استطعنا أن نعالج ندوبها في نفوسنا، وذلك بالتطلع إلى المستقبل، وبالثقة بمعونة الله ـ تعالى ـ للجادين المثابرين. وعلى العكس من هذا فإن إخفاقاً صغيراً قد يؤدي إلى تدمير بنيتنا الشعورية إذا سبحنا في الأوهام، ونظرنا إليه على أنه بداية لإخفاقات لا نهاية لها.

٣- لن يكون هناك فائدة ذات قيمة يمكن أن نستفيدها من وراء معرفتنا بإخفاقاتنا إذا أدمنا البحث عن الأعذار التي تجعل الإخفاق شيئاً خارج إرادتنا وإمكاناتنا. وقد دلت التجربة على أن كل واحد منا يملك قدرة مدهشة على إيجاد المسوِّغ لأخطائه وتقصيراته، حتى عتاة المجرمين فإنهم يملكون منطقاً يمكنهم من جعل الوضعية التي هم فيها قابلة للشرح وقابلة للتصديق من قبل أنفسهم ـ على الأقل ـ ومن قبل بعض الناس أيضاً. ولطالما سمعنا من يقول: أخفقتُ في دراستي الجامعية بسبب الخلافات

المستمرة بين أبي وأمي والتي كانت تحرمني من نعمة الهدوء والاستقرار. ومن يقول: لو تلقيت المساعدة من رئيسي في العمل لنجحت في مهمتي. ومن يقول: لو كنت في بلدي لأسست أفضل مشروع خيري هناك. ومن يقول: لو أُعطيت الفرصة المناسبة لأظهرت براعتي في الأمر الفلاني. وهكذا...

لو تأمل أصحاب هذه الأعذار وأمثالها في أوضاعهم لوجدوا أن هناك أشخاصاً كثيرين أنجزوا أموراً عظيمةً وتجنبوا الإخفاق، وخرجوا من وضعية التمني والتشهي مع أنهم يعيشون في ظروف أسوأ من الظروف والأحوال التي مروا أو يمرون بها.

حتى نكف عن اختلاق الأعذار نحتاج إلى مواجهة صريحة مع النفس من خلال امتلاك الشجاعة التي تمكننا من رؤية أنفسنا على حقيقتها. وحين نحوز ذلك فسنجد أن المشكلة الأساسية في كل إخفاقاتنا تعود إلينا شخصياً، وأن دور الآخرين كان في معظم الأحيان هامشياً. ولو تعمقنا أكثر فأكثر لوجدنا أن تأثير الظروف المحيطة هو تأثير نفسي في المقام الأول. وهو تأثير لا يكون إلا عندما يكون الواحد منا في وضعية شعورية وعقلية تتسم بالهشاشة وعدم السواء.

٤- لنحاول حين نخفق في أمر من الأمور أن نقوم بتحليل جيد لأسباب الإخفاق. وذلك التحليل لا ينفعنا من خلال المعطيات التي قد يوفرها لنا فحسب، وإنما يفيدنا أيضاً من

خلال بناء هيكلية نفسية وشعورية تتأبى على الاستسلام للنتائج الصعبة، وبناء عقلية واعية بذاتها وقادرة على التمييز بين الأعذار الوهمية وبين الأسباب الحقيقية للإخفاق. حين يواجه الواحد منا حالة إخفاق فإن عليه أن يمعن النظر فيها، ويحاول أن يسجل على الورق إجابات للأسئلة الآتية:

- لماذا حدث ذلك؟

- هل حدث بسبب أن طموحاتي أكبر من إمكاناتي، أو بسبب أن توقيت الإنجاز كان غير ملائم، أو بسبب سوء التخطيط والإعداد، أو بسبب حدوث أمور لم آخذها في الحسبان. . . ؟

- إذا عزمت على تكرير العمل الذي أخفقت فيه، فما الطريقة التي يجب أن أؤديه بها، وما التعديلات التي يجب إدخالها على الطريقة السابقة؟

- الأمور التي سببت الإخفاق السابق، هل يمكن فعلاً تجنبها في المحاولة الجديدة أو أن هناك احتمالاً لتكررها؟

- هل الأولى الإعراض عما أخفقت فيه والبدء بعمل جديد قد يكون نجاحي فيه أكبر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل أنا متأكد أنني عزمت على ذلك من خلال رؤية واضحة، أو بدافع من الإحباط الذي ولّده الإخفاق السابق؟

- ما الدروس والعبر التي لم أكن لأتعلمها لولا الإخفاق الذي وقعت فيه؟

- هل أنا واثق من أنني قادر على تجاوز آثار الإخفاق السابق؟

لا ريب أن أجوبة هذه الأسئلة لن تكون واضحة وحاسمة دائماً، ومع هذا فنحن بحاجة إلى عمل ذلك حتى لا يتوالى مسلسل المشروعات المخفقة.

٥- قد تعودنا أن نتحدث عن أسباب النجاح وشروطه، وهذا شيء جيد لكننا إلى جانب هذا في حاجة إلى أن نثقف أنفسنا بثقافة الإخفاق أيضاً. ولا أقصد بالإخفاق هنا خوض تجربة غير ناجحة فحسب، وإنما أعني إلى جانب ذلك الوضعيات السيئة التي يعيش فيها الأشخاص العاديون ومن هم دونهم من أولئك الذين لم ينجزوا في حياتهم إلا أقل القليل.

إن معظم الناس يقعون في الأزمات والمشكلات بسبب قلة خبرتهم بالأسباب التي توقعهم فيها. ومع أن كثيراً من أسباب الإخفاق قد يكون معلوماً لدى القارىء الكريم إلا أنني أود أن أجمع شتات المهم منها هنا، حتى تترسخ في الأذهان. ومنها:

- عدم وجود هدف واضح في الحياة، يجعل التحفيز على العمل الجاد شبه معدوم.

- نقص في الطموحات، والرضا بالقليل من كل شيء. وهذا مدعاة إلى عدم الشعور بالحاجة إلى التطوير وبذل الجهد.

- التدني في مستوى ما ناله الشخص من تعليم منهجي وسوء

التربية الأسرية. وهذان العاملان من أكبر العوامل التي تجعل المرء عادياً أو أقل من عادي.

- عدم امتلاك خلق الصدق وخلق الأمانة مما يُضعف الثقة بالمرء، ويحرمه بالتالي من كثير من الفرص.

- الاتصاف بصفة الكِبْر، حيث يجد المتكبر صعوبة في الاعتراف بالخطأ وفي التعلم من غيره.

- الإسراف في الشهوات والانحراف عن الطريق القويم، مما ينهك العقل والجسد.

- النقص في تركيز الجهد في أمر أو تخصص معين، إذ يتوقف كثير من النجاح في بعض الأحيان على الاهتمام بقضية صغيرة والتعمق فيها.

- عدم القدرة على التعاون مع الآخرين وعدم امتلاك روح الفريق. وهذا سبب خطير من أسباب الإخفاق؛ ولا سيما في عصرنا الحاضر.

- النقص في الانضباط الذاتي، حيث يصبح الإنسان في حالة من الفوضى الشعورية والسلوكية.

- إرجاء الأمور المهمة والتسويف في أداء الواجبات، وتفويت الفرص في انتظار الوقت الملائم، والذي قد لا يأتي أبداً!

- الاعتماد على الظن والتخمين عوضاً عن التفكير، واتخاذ قرارات مصيرية من غير توفر قاعدة معلومات جيدة.

- عدم القدرة على المثابرة والاستمرار في أداء الأعمال.

- الرغبة الجامحة في الحصول على أشياء مهمة من غير بذل الجهد الذي يجب أن يبذل في سبيلها، كما يفعل المغامرون والمقامرون.

- الاختيار الخاطىء للمهنة أو التخصص الذي يمارسه الشخص مدى حياته، مما يؤدي إلى التشتت وفقد الحماسة والانسجام.

المهم دائماً في مقاومة الإخفاق ألا نهرب من تحمل مسؤولياتنا عن أعمالنا، وألا نظن أن الإخفاق في أمر من الأمور يعني نهاية العالم وطي صفحة الوجود!



(١٤)

الارتقاء بالخطاب

من الواضح أن اجتماع الناس بعضهم مع بعض يولّد بينهم التوترات والمنازعات وسوء الفهم. وقد شاء الله ـ جل وعلا ـ أن يجعل اختلاف العقول والأمزجة والأذواق وعدم تطابق المصالح ـ معقد الابتلاء في الحياة الاجتماعية. وسيزداد الأمر تعقيداً حين نتعامل مع بعضنا على قاعدة: لكل شيء مقابل.

في عصرنا الحاضر تحسن وعي الناس بحقوقهم، كما ترسخ لديهم شعور بضرورة تمتع كل واحد منهم بالكرامة والتقدير وتكافؤ الفرص على النحو الذي يتمتع به كل فرد في المجتمع. وقد تجسَّد كل ذلك بانتظار كل واحد منا مزيداً من الإحساس به وبرغباته ومشاعره ومصالحه من قبل الآخرين. وهذا التوقع نفسه زاد من حساسيتنا تجاه ما يمكن أن يُرتكب معنا من أخطاء، أو ما يجري نحونا من تقصير، ومن وجه آخر فإن الإنسان كلما ارتقى في سُلَّم الحضارة، وأمعن في تذوق طعم الرفاهية بات أكثر إحساساً بالمجال الحيوي الذي يخصصه لنفسه، وبات أكثر حرصاً على توسيع ذلك المجال، فهو يتضايق أكثر فأكثر من كل الأقوال والتصرفات والمواقف التي يشعر أنه لم يصاحبها ما تفرضه اللباقة والكياسة من عناية واهتمام، وهذه بعض الإضاءات

حول الارتقاء بالخطاب واستخدام اللغة، أسوقها في المفردات الآتية:

١- الإسلام دين يحرص أشد الحرص على أن يسود الوئام في المجتمع المسلم. والذي يتأمل في كثير من الآداب ذات الصلة بالمواقف الكلامية يتأكد لديه أن الإسلام يرى في إلآنَةِ القول وفي استغلال المناسبات للتعبير عن الاهتمام بالآخرين، وسائل مهمة لتخفيف البغضاء والشحناء بين الناس، ولإضفاء البهجة والحميمية على أشكال التواصل بينهم. وهذا واضح جداً في الآداب التالية:

- إفشاء المسلم للسلام وحرصه على أن يبدأ أخاه به، وقد قيل للنبي - ﷺ -: الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام؟ فقال: «أولاهما بالله».

- تشميت العاطس والدعاء له بالرحمة، وقد ورد أن ذلك من حق المسلم على المسلم.

- خفض الصوت وعدم رفعه على حد الحاجة؛ لأن في رفعه نوعاً من العدوان على الآخرين؛ وقد أوصى لقمان ابنه بقوله: ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾[1].

البعد عن الكلام البذيء والفاحش، والبعد عن اللعن والشتم وكل ما يأباه أهل الديانة والمروءة من مرذول القول وقبيح

---

(١) سورة لقمان: ١٩.

الكلام؛ وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ليس المسلم بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء». وقال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر». وقال: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه».

– تحري الكلمة الطيبة أثناء الجدال والالتزام بآداب الحوار والنقاش، والبعد عن الاتهام وتحميل كلام المخالف ما لا يحتمل؛ وقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1].

إن المسلم حين يلتزم بهذه الآداب يسهم في رفع مستوى اللغة الاجتماعية السائدة، ويضفي على أساليب الكلام ملامح التسامي والتهذيب؛ ومن خلال هذا وذاك ترتقي مفاهيم الناس عن اللياقة الاجتماعية، كما ترتقي معايير الاتصال بين الناس؛ مما يشيع الشعور بالتأنق والرفاهية الروحية.

٢– الإنسان في العصر الحديث يعاني من أمور كثيرة لم يكن يشعر بها الناس في الماضي. ومن تلك الأمور الزحام والضجيج وكثرة الأعباء التي تفرضها الحياة العصرية، بالإضافة إلى سعة الطموحات التي تقصُر عن بلوغها إمكاناتُ معظم الناس؛ ولهذا فأعصاب الناس اليوم أكثر إرهافاً نحو الإزعاج أكثر من أي وقت مضى، ولم يعد في إمكان أكثر الناس أن يتحملوا المزيد. وفي العديد من الدول تزداد أعداد المشاكسات في الصيف والتي قد

(١) سورة النحل: ١٢٥.

تصل إلى حد المشاجرات بسبب ارتفاع درجات الحرارة. وهنا يأتي دور الكلمة الناعمة الندية في تخفيف شيء من عناء الناس وفي تخفيف شيء من الضغوط التي يواجهونها. والحقيقة أن طريقة تناول الحديث ونوعية المفردات التي يتم استخدامها ونبرات الصوت والنظرات التي تصاحب عمليات الكلام. . . إن كل ذلك يعبر تعبيراً دقيقاً عن الوضعية الفكرية والنفسية والثقافية والخلقية التي يتلبَّس بها المتكلم. وبما أن اللغة ناقل غير شفاف، وبما أن سوء الفهم ـ نتيجة قصور اللغة ونتيجة قصورنا في استخدامها ـ أمر غير مستغرب؛ فقد بات علينا أن نكون دقيقين جداً في تعبيراتنا، وأن نصبغ كلامنا باللطف واللين والتودد؛ وهكذا فقد صار قول كلمة (عفواً) مطلوباً عند أدنى خطأ قولي أو حركي، يقع فيه الواحد منا، كما صار شكر الناس على أدنى التفاتة يبدونها نحونا أيضاً مطلوباً. وصار من غير المقبول أن يقول أي واحد منا لغيره: أعطني، أو أجبني، أو اشرح لي، أو ابتعد عني. . . من غير أن يرفقها بكلمات ملاطفة، من نحو: (إذا سمحت) و (من فضلك) و (من بعد إذنك) و (لو تكرمت). . . وحين يدلي أحدنا برأي ما فإن من المستحسن ألا يسوقه على سبيل القطع والتأكيد، وإنما يقول معه أو بعده: آمل أن أكون مصيباً في ذلك، أو: هذا ما أعرفه، وقد يكون لدى غيري ما هو أدق منه أو أصوب منه. . .

التكلم بهدوء دون سرعة ومن غير رفع صوت هو الآخر مطلوب، وإن من المؤسف أننا نرى بعض المحاورين الذين يتحدثون في البرامج التفاعلية في الإذاعات والفضائيات، يرفعون أصواتهم على نحو لافت ومزعج ظناً منهم أنهم بذلك يقنعون الناس بما يقولون، أو يتغلبون على محاوريهم ومناظريهم. وهذا شيء ربما كان مقبولاً في بعض الأزمان أو العصور، أما الآن فإنه يعد شيئاً خارجاً عن اللباقة فضلاً على أنه مؤشر ضعف لا قوة!

من سمات الإنسان المهذب في كلامه أنه يحاول أن يبتعد عن اتهام الآخرين ومعاملتهم على أساس الظنون والاحتمالات، كما أن من سماته أنه يكبح نفسه عن الانسياق وراء شهوة الهذر والسيطرة على المجلس من خلال الكلام المتتابع الذي ينطوي على الكثير من التكرار والكثير من التفصيلات غير المهمة، مما يحرم الآخرين من فرصة المشاركة.

أخيراً؛ فإن الصدق مطلوب في كل ذلك، فالمجاملة والملاطفة من غير مشاعر صادقة، قد تنقلب إلى مداهنة ونفاق، والجليس يكتشف ذلك بسرعة. الحصول على الصدق في كل ذلك ليس أمراً صعباً، إذ إننا بمجرد أن نتذكر أن هناك من هو أكيس منا في توجيه الخطاب، ومن هو أكثر منا دماثة وملاطفة ومصداقية في محادثاته، فإن حالة من الشعور بالصدق والتواضع تصبغ عقولنا ونفوسنا.

٣- ليست حاجتنا إلى الارتقاء بخطابنا ولغتنا مقصورة على المواقف الاجتماعية فحسب، وإنما تمتد إلى نواح شخصية بحتة؛ إذ من الواضح أن هناك صلة ما بين الهدوء النفسي واعتدال المزاج وبين السمو اللغوي، كما أن هناك صلة ما بين المزاج الانفعالي والطبع الحاد وبين الإسفاف اللغوي، وكأن للمفردات والأساليب اللغوية دوراً في تغذية الطباع الرديئة والأمزجة السوداوية، ولم لا ونحن نعلم أن اللغة ليست وسيلة لنقل المعلومات فحسب، وإنما هي أداة لتشكيل أفكار الإنسان وانطباعاته أيضاً.

ومن وجه آخر فإن الخطاب الشخصي غير المتزن وغير المهذب وغير العقلاني كثيراً ما يسبب لصاحبه المتاعب؛ لأنه يملي عليه صراعات ويورطه في مآزق قد يسلم منها لولا سلاطة لسانه ولولا تحدثه عما لا يحسن. وقد رأينا أشخاصاً كثيرين من هذا النمط، وقد دخلوا معارك خاسرة واستمروا فيها رغم قناعتهم بضرورة الانسحاب؛ لأنهم أسرى لشهوة الحديث عن انتصار وغلبة أو صمود ومقاومة، وحتى يتمكنوا من ذلك، فلا بد من القيام بشيء ما يوفر لهم مادة للكلام. عند هذه النقطة نجد أن الحيوان أكثر عقلانية ومنطقية من بعض الناس الذين حُرموا من عقلانية الخطاب ومنطقية الطرح، فقد أشار أحد العلماء إلى أن العدوان بين الذئاب لا يدوم بمقدار ما يدوم عند الإنسان،

فالذئاب تتقاتل بكل شراسة، ولكن حين يتقاتل ذئبان، ويرى أحدهما أنه مغلوب لا محالة، فإنه يقوم في الحال بعمل حركات استرضائية للذئب الغالب، وينتهي القتال. وليس من المعتاد أن يستمر القتال حتى الموت، كما أن الذئب الظافر لا يعدو على أنثى الذئب المغلوب ولا على جرائه. ولعل السبب في ذلك أن الذئب إنما يقاتل فحسب، ولا يتحدث فيما بعد عن بطولاته للذئاب الأخرى، وليس لديه لغة مشحونة بالانفعالات، يستطيع بواسطتها أن يبقي دوافع العدوانية ناشطة فعالة حتى بعد أن يكون السبب المباشر للعدوان قد انقضى!

وهكذا فإن الارتقاء باللغة الشخصية هو نوع من الارتقاء بالذات. والعمل على بلورة خطاب جديد ومعاصر هو نوع من العمل على صياغة ذاتٍ جديدة، تصنع المعاصرة، وتتغذى عليها.



(١٥)
ما بين الماضي والمستقبل

من الصعب علينا أن نكوّن عقلية إسلامية معاصرة من غير توضيح بعض الأسس والمفاهيم التي تجعل موقفنا العقلي من الماضي بكل دروسه ومعطياته ورموزه، ومن المستقبل بكل آفاقه وتحدياته ومطالبه، موقفاً يتسم بالوضوح والشفافية والمنطقية.

ومما هو ملموس الآن أن لدى كثيرين منا نوعاً من الارتباك تجاه العثور على صيغة توازنية بين الماضي والمستقبل، حيث تجد شريحة غير قليلة من المسلمين غارقة في الماضي أخذاً للدروس والعِبَر، واعتزازاً بالأمجاد والبطولات، وانهماكاً في التأويل والتفسير والدفاع والرد... وفي المقابل فإن كثيراً من المثقفين غسلوا أيديهم من كل شيء اسمه تراث أو حضارة إسلامية أو تاريخ لأمة كبيرة، وصاروا يتعاملون مع من يثقفونهم على أنهم أشخاص لا جذور لهم، يقومون بترويضهم على الاتجاه نحو المستقبل عاطلين عن أي خلفيات إسلامية أو تاريخية، فحسبهم أن يتسلحوا برؤى الغرب في اكتشاف المستقبل وفي نوعية التهيؤ له! وكانت نتيجة ذلك بلبلة فكرية عريضة تجتاح الكثير من الشباب الذين يشعرون بضرورة تجسير

العلاقة بين الماضي والمستقبل؛ لكنهم لا يهتدون إلى تحقيق ذلك. ولعلي أقدم هنا بعض المقاربات الفكرية والثقافية التي قد تساعد في العثور على الصيغة التواصلية التي نتلمسها:

١- نحن أمة كبيرة ذات تاريخ مستطيل في الزمان ومستعرض في المكان، وتشكيل رؤية إحاطية بذلك التاريخ أقرب إلى المستحيل منه إلى الممكن، ولذا فإن علينا ونحن نستعرض الماضي، ونحاول سبر أغواره ألا نطمع في الحصول على أكثر من رؤى وملاحظات اجتهادية. وعلينا ونحن نستلهم التاريخ أن نسأل أنفسنا: لماذا نعود إلى الماضي، وما الذي نريده من ذلك، وهل هناك جدوى فعلاً من محاولات استخلاص بعض الدروس والعظات من وقائعه وأحداثه. وإذا توصلنا إلى ذلك فهل تلك الدروس والعظات تملك من الفاعلية والحيوية ما يساعدنا فعلاً على تحسين رؤانا للمستقبل وللتخطيط والاستعداد له؟

هذه التساؤلات تحدد لنا طريقة النظر إلى الماضي وطريقة التعامل معه والاستفادة منه.

٢- نحن إذ نتحدث عن الماضي لا نقصد بالطبع نصوص الوحي؛ لأنها فوق الزمان ووظيفتها الإرشادية والتعليمية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وإنما نتحدث عن أشكال تفاعل أمة مع تلك النصوص في إطار من فهمها وظروفها وتطلعاتها وخلفياتها الثقافية والتاريخية.

وقد كان ذلك التفاعل مولداً للكثير الكثير من الأفكار والمفاهيم والرؤى والأحداث والمواقف والإنجازات والتحديات والمشكلات. . . وهذه الأمور هي التاريخ وهي الماضي، وهي ما نرجع إليه ونحاول قراءته واستيعابه. وقد أسهم كل ذلك في تكوين العقلية الإسلامية في الماضي، كما أسهم في تكوين المرجعية الرمزية للأجيال اللاحقة على مستوى المحكّات العقلية والمشاعر الوجدانية، وعلى مستوى السلوكات والأنشطة العملية. وما زلنا نحكم على الكثير من إنجازاتنا وعلاقاتنا من أفق تلك المرجعية. وعلى هذا فنحن باعتبارٍ ما جزءٌ من الماضي. وإذا ما أردنا فهم جذور كثير من أحوالنا الحاضرة فعلينا أن نعمق رؤيتنا لما جرى في تاريخنا من أحداث، ولما ساد فيه من أوضاع وأحوال، كما أننا في حاجة إلى فهم التاريخ من أجل الاهتداء إلى مفاتيح الشخصية الإسلامية ومكامن القوة والضعف في الأمة ومعرفة المداخل الصحيحة لحفز أبناء الأمة وتحريكهم ودفعهم في سبل العزة والصلاح والتقدم.

المشكلة التي تعترض سبيلنا في محاولة الفهم هذه أننا ـ كما هو شأن كل البشر ـ لن نستطيع فهم الماضي بعقول صافية أو من خلال ثقافة نقية، وإنما من أفق الحاضر، وضمن آليات الفهم الحديثة، أي أننا لن نستطيع على نحو جيد رؤية السلف بعيون سلفية بسبب الأغشية الثقافية الحاضرة والتي لا يمكن أن ننظر إلا

من ورائها. هذا يعني أن تفسيرنا للماضي وحكمنا عليه واستخلاصنا للدروس والعبر منه، هو باعتبارٍ ما وعلى مستوى ما متحيز للحاضر، ومتحيز لفلسفة الغرب واتجاهاته بوصفه المهيمن على الثقافة المعاصرة والموجِّه لها.

قد يقول قائل: ما حاجتنا إلى هذا الكلام وهذا التحليل؟

الحقيقة أن هذا يفيدنا في توخي الحذر عند إصدار الأحكام ورصد الظواهر والتعبير عن الوقائع التاريخية، حيث يتعين علينا أن نعرف أننا حين نصور الماضي، أو نستنبط منه، فإننا نصور في حقيقة الأمر ما أدركناه من ذلك الماضي، وسيظل هناك مجال للمفارقة والاختلاف بين التاريخ بوصفه أحداثاً وقعت وبين ما أدركناه من التاريخ بوصفه صوراً التقطت على أنها ممثلة للتاريخ ومعبرة عنه.

رؤيتنا للماضي بعيون الحاضر ـ إذا أخذنا الملحظ السابق بعين الاعتبار ـ مفيدة لنا؛ لأنها كثيراً ما تعبر عن وعي أفضل نضجاً، كما أنها تساعد على رؤية الأحداث من أفق ما كان ينبغي أن تجري عليه، وفي هذا تنمية للحاسة النقدية، وتدريب للعقل على تطوير أساليب عمله.

٣- إن حاجة المسلمين إلى التاريخ أقل من حاجة غيرهم، فنحن أمة أكرمها الله ـ تعالى ـ بنعمة الهداية، وبالمنهج الرباني المعصوم والشامل لكل جوانب الحياة. وهذا المنهج يتفاعل معه

الناس، لكنه لا يتفاعل مع الأزمنة على مستوى الأصول والثوابت والخطوط العريضة، على حين أن الأمم الأخرى في حاجة ماسة إلى العودة إلى الماضي لتستمد منه الكثير مما يوجه مسيرتها، ويمدها بالأصالة والوضوح.

ونحن من وجه آخر قادرون بما نملك من قطعيات الوحي على الحكم على التاريخ، وعلى أعمال السابقين في كل اتجاه وكل مجال.

إذن لماذا نعود إلى الماضي، وما حاجتنا إلى ذلك ما دام الأمر على هذه الصورة؟

- نحن في حاجة إلى الماضي من أجل التعرف على فهم السلف للنصوص؛ لأنهم عايشوا ظروف التنزيل وعاشوا ظروف التشريع، كما عاينوا الملابسات التي أحاطت بقيام أمة الإسلام وتأسيس كيانها الأول. ومن غير تلك العودة، فقد تتسع دائرة الخلاف لدينا في الوقوف على مرادات الله ـ تعالى ـ ومرادات رسوله ﷺ.

- يقدم لنا التاريخ تجارب غنية في مجال علاقة الإنسان المسلم بالشريعة الغراء استيعاباً وامتثالاً وتطبيقاً وتفاعلاً؛ إنه يمنحنا البصيرة بخفايا النفس البشرية حين يُطلب منها العمل وفق مخطط توجيهي وأحكام واضحة ومحددة؛ كما يمنحنا البصيرة بحدود الاستجابة لعزائم التكليف في سياق الظروف الصعبة التي

يمر بها الإنسان المسلم، والبصيرة بأشكال الضعف الإنساني في مواجهة الشهوات والرغبات والمغريات.

- من خلال العودة إلى التاريخ نستطيع أن نبصر الكثير من التجارب الناجحة والمخفقة في معالجة مسائل السياسة والاقتصاد والاجتماع. صحيح أن تطاول الزمان وتغير الأحوال واختلاف الظروف يجعل أساليب السابقين وأدواتهم في المعالجة قليلة الجدوى بالنسبة إلينا، لكنها تكشف لنا ـ على الأقل ـ عن بعض الأصول الفكرية والخلقية والنفسية التي يمكن أن نرتكز إليها في معالجة العديد من المشكلات، حيث إن الجوهر الإنساني ثابت، واستجابات الناس للإصلاح تكون متقاربة حين يعيشون في بيئات وظروف متشابهة. ولذا فإن الله ـ تعالى ـ قصّ على نبيه ـ ﷺ ـ أخبار معاناة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مع أممهم، وقال له: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[١].

وسيظل على كل حال من العسير أن نحصر كل ما يمكن أن نستفيده من العودة إلى الماضي ومن وراء قراءة التاريخ، فلنكتف من القلادة ما أحاط بالعنق.

٤- نحن نعتقد أن التراث لا يستطيع أن يقدم لنا نظريات متكاملة لحل مشكلاتنا الحاضرة، ولا تحديد خطوط الحركة في المستقبل؛ فقد مضت سنة الله ـ تعالى ـ في الخلق ألا تتسع

(١) سورة الأنعام: ٩٠.

مرحلة حضارية سابقة في تنظيماتها وآلياتها لمرحلة حضارية متأخرة، ولكنني مع هذا أرى أن من الضروري أن نحتفظ بعلاقة جدلية توترية بين التراث وبين رؤانا وخططنا المستقبلية. ولن نستطيع أن نرى معنى لتلك العلاقة إلا إذا أدركنا أن من غير الصواب أن نعتقد أننا امتلكنا الرؤية النهائية للتراث ووقفنا على كل أسراره ومعطياته، واخترقنا كل طبقاته؛ ولهذا فإن في إمكاننا أن نطوي صفحته، ونلتفت إلى ما استخلصناه منه. إن فهمنا للتراث والماضي والتاريخ لن يكتمل؛ لأن آليات الفهم لدينا ونظم التفكير ما زالت في حالة من النمو والتجلي المتجدد، كما أن المعرفة المنظمة التي تغذي عقولنا بالمعاني والمفاهيم التي تشتغل عليها ما زالت هي الأخرى في حالة من الاتساع والتضخم. ولهذا وذاك فإن علينا الاستمرار في قراءة التراث وتفسيره وجمع الدلالات والإشارات التي يرسلها إلينا.

ونحن من وجه آخر نعتقد أننا في حاجة إلى العلاقة الجدلية بين الماضي والمستقبل؛ انطلاقاً من إيماننا بأن تلمُّس المستقبل يجب أن يتم من أفق خبرات الماضي والحاضر وفي إطار الاستمرارية لذاتنا الثقافية، فنحن أمة لا تستطيع الاحتفاظ بجوهر وجودها من غير الدين الذي تؤمن به ومن غير استهداف إبلاغ رسالة الإسلام للعالم والدفاع عن الحق والمثل العليا. وهذه أمور تجسِّر العلاقة بين الماضي والمستقبل، وتجعل وجودنا المعنوي استمراراً لوجود الأخيار من سلف هذه الأمة.

قد صار واضحاً أن الاقتصار على إحياء التراث ونشره والتغني به لن يجعلنا نشيد كيان أمة الإسلام من جديد، ولا أن نسترد موقعنا على الساحة العالمية. وفي المقابل فإن الارتماء في أحضان الغرب والزج بأنفسنا في تيار الحضارة الحديثة لن يجعلنا عصريين ولا مبدعين، ولن يملكنا مفاتيح العالم الجديد؛ لأن بعث أمة ودفعها في دروب النهضة والتقدم ليس في منزلة نقل البضائع من مكان إلى آخر، ولا بمنزلة تجديد أثاث بيت أو مدينة، إنه شيء مختلف تماماً.

سوف ننجح في إحداث نقلة نوعية في حياتنا إذا ما نجحنا في جعل الانفتاح على الماضي محفزاً على التجديد والتخطيط للمستقبل، وإذا ما نجحنا في جعل عملنا للمستقبل واهتمامنا به محفزاً على الاستمرار في التواصل مع الماضي واستكشافه وتدعيم قوانا الروحية والمعنوية.

إن هدفنا المستمر هو تحرير الذات من الجهل والخرافة والعبودية، ومن قيود الحاجة والضرورة وويلات التشتت والتمزق والضياع. ويجب أن نتخذ من مدى استفادتنا من التاريخ على صعيد هذا الهدف معياراً للاهتمام به والاستمرار في التواصل معه.

سوف يظل التراث حياً ما دمنا قادرين على توظيفه في الإجابة على أسئلة المستقبل، وعلى تحقيق تطلعات الإنسان المسلم في العزة والكرامة وفي المشاركة في صنع المستقبل.

والصحوة الإسلامية المباركة بوصفها مهتمة بإحياء التراث سوف تستطيع المحافظة على زخمها وحيويتها إذا استطاع روادها ورجالها المشاركة في إيجاد حلول عملية للمشكلات السياسية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية، وتلك المشاركة لا توفر أطراً لتوظيف المنهج الرباني الأقوم، ولا تساعد على إبقاء التراث حياً فحسب، وإنما توفر له فرصة لاكتساب أبعاد جديدة، وفرصة للتألق والفاعلية.

إذا سلمنا بهذه المقولات، فإن موقفنا من عطاءات الماضي يحتاج إلى مراجعة كبرى، حيث يمكن أن ننتقي من التراث ما يمكن تسميته (التراث الوظيفي) أي مجموع العلوم والخبرات والمفاهيم التي يمكن توظيفها في النهوض بالأمة وتحسين قراراتها المستقبلية. وليس هذا بالأمر العسير إذا امتلكنا ما يحتاجه هذا العمل من العزيمة والوعي.



(١٦)
التعددية قوة

اختلاف العقول والفهوم والآراء والرؤى والتقديرات. . . سنة من سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق، وليس هناك أي مجال لتجاوز هذه السنة أو الالتفاف عليها، يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(1). إن هذا القول الكريم لا يفيدنا أن الاختلاف شيء مكتوب على بني آدم فحسب، وإنما يفيدنا أيضاً أن المرحومين من الناس لا يختلفون؛ قال الطبري: «ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتّى: يهودي ونصراني ومجوسي، إلا أهل الإيمان فإنهم غير مختلفين».

ومن الواضح أن الخلاف الذي يخرج الناس من رحمة الله ـ تعالى ـ ويجعلهم عرضة للهلاك والبوار هو الخلاف الذي يكون على مستوى الأصول والثوابت والمسائل الكبرى، كالخلاف الذي بين أهل الأديان والملل المختلفة. أما الاختلاف في الفروع والجزئيات والمسائل الاجتهادية فهو واقع لدى أهل الأديان كافة، ولدى الخيار منهم، فقد اختلف كل من عانى الاجتهاد والفتيا والدعوة من أصحاب الرسل وأتباعهم، ويدلنا الله ـ جل

---

(١) سورة هود: ١١٨، ١١٩.

وعلا ـ في آية أخرى أنه كتب الاختلاف على الناس ليبلوهم ويختبرهم، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[1] إن اختلاف الشرائع واختلاف العقول والخلفيات الثقافية هو ابتلاء من الله ـ تعالى ـ ليرى كيف يتعامل عباده مع الأصول والثوابت، وكيف يتعاملون مع الفروع والجزئيات.

ما دام الاختلاف سنة ربانية، وما دام وجوده من أجل الابتلاء، فإن علينا أن نتلمس طرق التعامل معه، وأن نتلمس المنهج الذي يجعلنا ننجح في ابتلاءاته وفتنه وتحدياته...

ولعلي هنا أضع بعض العلامات الهادية في هذه المسألة المهمة، وذلك عبر المفردات الآتية:

١ - يجب أن نقف تجاه تعدد الآراء في القضية الواحدة كما نقف تجاه أشياء كثيرة لا نجد أدنى حيلة في تغييرها أو القفز عليها. وهذا الموقف تُمليه ميوعة كثير من الحقائق واحتمالها للتفسير والتأويل، كما تُمليه طبيعة اللغة التي نستخدمها في التفكير والتواصل والشرح، إلى جانب خصوصية الثقافة وخصوصية الزاوية التي ننظر منها إلى الأشياء...

إن مما هو جلي أن القضايا الكبرى والأصول العظيمة تكون عادة ذات تفريعات كثيرة، وحين يقع الإجماع فإنه يقع على أصل

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

المسألة وبعض تفصيلاتها الأساسية، وكلما اتجه البحث والنظر في اتجاه الأمور الأكثر فرعية وتفصيلاً، صرنا نجد تبايناً أكثر واختلافاً أشد في الرأي. وفي إمكاننا أن نطبق هذا على كل مسائل الحياة الدينية والدنيوية، كما هو الشأن في الصلاة والزكاة والحج والجهاد والعلاقات الدولية واللوائح والنظم الوضعية السارية.

وقد ورد أن النبي ـ ﷺ ـ قال عقب غزوة الخندق: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها ـ أي ولو غربت الشمس ـ وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرد منا ذلك. فذُكر ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فلم يعنِّف واحداً منهم». خلاف الصحابة في فهم مراد الرسول ـ ﷺ ـ شكل بارز من أشكال اختلاف السامعين في تفسير الكلام الذي يسمعونه، حيث وقف بعضهم عند ظاهر اللفظ وهو أداء الصلاة في ديار بني قريظة، وفهم بعض آخر معنىً خاصاً من التوجيه الكريم وهو الحث على الإسراع في السير، وليس أداء الصلاة عند بني قريظة، ولذا فإنهم جَدُّوا في المسير وصلَّوا العصر في الطريق، مع أن الظاهر أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يرد إلا أحد المعنيين. وقد وضع علماؤنا القدامى علماً كاملاً هو علم (أصول الفقه) من أجل تفسير النصوص ووضع قواعد لفهمها وتوضيح ما تحتمله وما لا تحتمله من الاجتهادات والآراء؛ وكان ذلك عملاً أساسياً في تشييد الصرح الفقهي.

٢- نحن مسكونون بالخوف من تعدد الآراء، كما أن عقلنا الباطن يرى في الاتفاق قوة، كما يرى في الاختلاف ضعفاً وهزيمة، وكأن التربية التي تلقيناها أسَّست لدينا الاعتقاد بأن الأصل هو الاتفاق وأن الاختلاف شيء مَرَضي وطارىء وخلاف الأصل، مع أن الحقيقة ليست كذلك؛ فكلٌّ من الاتفاق والاختلاف أصل، لكن لكلٍّ منهما مجاله الخاص والمنفتح على المجال الآخر، الاتفاق أشبه بجذع الشجرة، وكلما اتجهت نحو الأعلى ابتعدت عن واحدية الجذع ووجدت نفسك أمام تعددية الأغصان، حيث مجال التنوع الكثيف.

وعلى هذا فاختلاف الآراء في المسائل الكبار شيء غير طبيعي، ويدل على مرض ثقافي، كما لو أن خلافاً استشرى بين المسلمين في فرضية الصلاة أو الصيام، أو في كون الزنى محرماً، أو في فضيلة بر الوالدين وصلة الأرحام وإغاثة الملهوف. وكذلك الاتفاق في الفرعيات هو شيء غير طبيعي، ويدل أيضاً على علل فكرية وثقافية، وهو لا يحدث إلا في حالات قليلة وفي أوقات الشدائد وانتشار الجهل المطبق.

ربما كان خوفنا من الخلاف مستمداً من بعض تجاربنا التاريخية في بعض المجالات، كالمجال السياسي ـ مثلاً ـ حيث كان التعبير عن تعدد الآراء لا يجد تجليه في كثير من الأحيان إلا في الاقتتال وسفك الدماء. والحقيقة أن الناس في حالات

التخلف ـ كما في أزمنة النكبات والنكسات وهي ليست قليلة ـ يجدون أنفسهم ميالين إلى استخدام العنف والقوة في قطع دابر الخلاف، أو إلى فرض المزيد من القوانين التي تحد من مجال الحركة، وتقلل من إمكانات التنوع الفكري، وبذلك تنطمس أمامنا معالم التثقيف والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، واستثمار اختلاف الرأي في فتح حقول جديدة للممارسة.

وربما كان خوفنا من التعددية في الرأي نابعاً من اعتقادنا بأن الخلاف في وجهات النظر يوهن من اندفاع الناس نحو العمل والإنجاز. وهذا صحيح في حالات فقدان المؤسسات والأطر التي تستوعب الطاقات الموجودة، وتحدد مسارات العمل والحركة. وأوضاع الدول الصناعية اليوم تشهد بهذا، فالناس فيها يمارسون حرية الرأي على أوسع نطاق، ويختلفون في أشياء كثيرة، ومع هذا فالإنتاجية فيها عالية جداً، والروح العملية مهيمنة. وعلى العكس من هذا العالم النامي، فهو مع قلة التنوع الفكري فيه ضعيف الإنجاز، قليل الإنتاج!

٣- التعدد في الرؤى مصدر قوة ومصدر ثراء، فالتطابق في وجهات النظر عند التأمل في ميزات الأشياء وفي عللها وفي النتائج التي يمكن أن تترتب عليها... لا يحدث إلا في إحدى حالتين: عطالة التفكير وإطباق الجهل والكسل الذهني، وسيطرة القهر والخوف والإكراه. وهما حالتان مكروهتان بسبب منافاتهما لجوهر الإنسان الذي كرّمه الله ـ تعالى ـ وخلقه في أحسن تقويم.

قد لا ندرك ميزة التعددية الفكرية إلا إذا تأملنا فيما يبدو لنا أنه توحد أو تطابق فكري. في القرن العشرين سعت دول كثيرة في العالم إلى صبغ شعوبها بصبغة واحدة في التفكير والتعبير والآداب وأسلوب العيش. . . وكانت تنظر إلى ذلك على أنه مصدر قوة وهيبة وتماسك في وجه الأعداء. . . وقد انتهى ذلك إلى إفقار الحياة الفكرية ثم حدث الانفجار الذي أودى بكل ما لدى تلك الدول من خير وشر وإيجابيات وسلبيات، إنه الزلزال الذي لا يميز بين ما يستحق البقاء وما يستحق الفناء؛ وإنها سنن الله ـ تعالى ـ التي على الناس أن يعرفوها كيلا يصطدموا بها.

الاتفاق المصطنع والمتعسف في الرأي مصدر كبير لفساد الذمم والنفاق والكذب والرياء واضمحلال الذات، أما حين يكون الاتفاق نتيجة التفكير الحر ونتيجة التعاطي مع القضايا المطروحة بطرق مختلفة، فإنه يكون دليل خيرية عظيمة، كما يكون ثمرة حلوة من ثمار التربية الفكرية الجيدة والتثقيف الأصيل. والحقيقة أن من ميزات الإيمان بالتعددية الفكرية والثقافية أنه يولد الإيمان بعدد من المبادىء الجيدة، منها مبدأ (اللاعصمة) لكل من يفكر ويجتهد ويبحث بالغاً ما بلغ من التدقيق والتحقيق ورحابة الأفق والعمق في الاختصاص والنضج في الخبرة؛ فحين أختلف مع شخص، فهناك احتمال لأن أكون أنا مخطئاً، وأن يكون هو المخطىء، وأن يكون كل منا على

خطأ، ويكون الصواب مع شخص ثالث. ومنها أننا إذ نفكر ونبحث ونعتقد أننا قد انتهينا إلى شيء يمكن التعويل عليه، لا نعدو أن نكون قد اقتربنا من الحقيقة تماماً كما يعتقد المخالفون لنا أنهم قريبون منها. وهذا يخفف من خطورة تحويل الظنيات إلى قطعيات، كما يجعل الهجوم على الأشخاص أقلّ حدة، ويجعل إمكانية التفاهم بين المختلفين أكبر.

ومنها أن كل واحد من المختلفين يرى نفسه ملزماً بأن يقدم آراءه على نحو يجعلها قابلة للاستيعاب وقابلة للنقد؛ لأنه في حقيقة الأمر يطالب الذين يختلفون معه بعين هذا المطلب، وما دام الجميع يقف على مسافة متقاربة من الحقيقة، فإن ما يطلب منهم جميعاً سيكون واحداً.

٤- من المهم دائماً أن نسعى إلى جعل الخلاف الذي ينشب بيننا على أي مستوى وفي أي مجال مؤطراً ومؤسساً وواضحاً، وذلك حتى يكون مصدراً للنمو العقلي لدى المختلفين ومصدراً للتفاهم المتبادل. الخلاف الغامض الذي لا تُعرف أسبابه ولا أسسه ولا أبعاده وغاياته كثيراً ما يكون من إنتاج المشاعر المضطربة والحساسيات النفسية، وهو خلاف يصعب علاجه؛ لأننا لا نعرف مداخله، وآثاره سيئة؛ لأنه يثير التعانف بين المختلفين. وهذه بعض المقاربات في هذه المسألة:

أ- الأحداث التي وقعت في الماضي على ما يمكن أن يلفها من غموض، وعلى ما يمكن أن تحتمله من تأويل وتفسير تظل

أقرب إلى أن تكون حقيقة من الأشياء التي نتوقع حدوثها في المستقبل، ولذا فإن ما يمكن أن يستنتج من سنن ومفاهيم وأفكار مما وقع في الماضي يتمتع بصلابة وموثوقية أكبر مما يمكن أن يستنتج مما نظن وقوعه في المستقبل، حيث المستقبل غيب؛ وكلما كان المستقبل الذي نتحدث عنه بعيداً كان انحجاب أحداثه عنا أشد، وكانت أوهامنا حوله أعظم.

ب- لدى الناس العديد من المبادىء العقلية الفطرية، وهم من خلال تلك المبادىء يتفقون بداهة على قبول الكثير من الحقائق، فهم مثلاً متفقون على حقيقة الارتباط بين الاجتهاد والنجاح وبين الكسل والرسوب، كما أنهم يتفقون على جلب المال لشيء من الراحة والرفاهية والسعادة. . . إلخ.

أما الآراء الشخصية فإنها لا تلقى الاتفاق والقبول إلا لدى أعداد محدودة من الناس، نظراً لصعوبة نشرها من جهة ولصعوبة إقناع الناس بها من جهة أخرى؛ كما لو أن باحثاً انتهى إلى أنه وجد أن الضرب هو أفضل وسيلة لجعل المرأة تطيع زوجها، أو انتهى إلى أن الذي لا يخرج من بلده يحصل على خبرات أكثر من الذي يسافر إلى بلدان عديدة.

وهكذا فالحقائق تبنى في العادة على ركائز فكرية موحدة، أو على خبرات شريحة عريضة من الناس. أما الآراء فإنها عبارة عن معتقدات خاصة لأصحابها. ومع هذا فإننا نقول: إن القفزات

النوعية في مسيرة التقدم العلمي ظلت مدينة لتلك الآراء التي تخرج على المألوف والشائع بين العلماء.

ج- كلما كانت المقولة أو الفكرة أكثر وضوحاً وتحديداً كانت أقرب إلى أن تكون حقيقة منها إلى أن تكون رأياً. والصفة الرقمية هي أكثر ما يمنح القول التحديد والوضوح. أما الآراء الشخصية فتكون عبارة عن مقولات عامة وعائمة يشوبها الغموض ولا يُدرى أحياناً من قالها، كما لا يعرف شيء عن مدى تحققها في الواقع.

ولذا فنحن نطمئن إلى من يقول لنا: إن فلاناً ربح هذه السنة مئة وسبعين ألفاً؛ لأن هذا التحديد يصعب الوصول إليه عادة من غير معرفة دقيقة. أما الذي يقول: إن فلاناً حقق أرباحاً أو أرباحاً كثيرة أو قليلة، فإنه لا يستحوذ على الكثير من اطمئناننا وثقتنا؛ لأن ميوعة عباراته قد تكون نابعة من ظنونه وتقديراته وهكذا...

٥- قدّمنا أن التطابق الفكري مرض خطير؛ لأنه يترجم حالات من القهر والكبت، أو حالات من الجهل والخرافة والعطالة، لكن تأدية التعددية في الرؤى والأفكار إلى ضياع اليقين وغياب الحقيقة وشعور الجميع بأنهم ليسوا على شيء، تعد كارثة حيث يمكن أن يمتد الخلاف إلى محكات نهائية ومرجعيات كبرى، مثل طبيعة الخير والشر وطبيعة الإنسان وحدود حقوقه ومصيره الأخروي، فيصبح المفكرون والعلماء

كمن يسبح في الفضاء بعيداً عن أي أرضية يستندون إليها، أو مثل كوكب خرج عن مداره، فصار أشبه بالمعدوم. وهذا ما وصل إليه العالم الغربي في قضايا كثيرة، إنه وقع في فخاخ النسبية الفكرية حيث تستوي الأفكار والمعتقدات، ويصبح كل معتقد أو قول وكأنه كل شيء ولا شيء في آن واحد، وبهذا تصبح (الحقيقة) مفهوماً من غير أي معنى!

وقد شعر بعض فلاسفة الغرب بوطأة هذه المشكلة وبالأضرار الهائلة التي تسببها لمجمل الشخصية الغربية ولاتجاهاتها الأساسية، ومن ثم فإنهم حاولوا أن يفرقوا بين النسبية الفكرية المخيفة والمكروهة وما أسموه بـ (التعددية النقدية) على نحو ما ذكره كارل بوبر حين قال: «أما التعددية النقدية فهي الوضع الذي يسمح فيه لكل النظريات أو أكبر عدد ممكن منها بأن تتنافس مع كل النظريات الأخرى وذلك لمصلحة البحث عن الحقيقة. وتتضمن المنافسة الجدل العقلي للنظريات والحذف النقدي لها. وهذا يعني ضرورة أن يكون هذا الجدل معنياً في الحقيقة بالنظريات المتنافسة. تكون النظرية التي تبدو الأقرب إلى الحقيقة أثناء الجدل هي الأفضل لتحل محل النظريات الأخرى. إننا إذن نراهن على الحقيقة».

ومن الواضح لديّ أن التعددية النقدية لا تبتعد كثيراً عن النسبية الفكرية في المحصلة النهائية، وهي انعدام اليقين لانعدام

الركائز التي يستند إليها؛ ولذا فإن (كارل) نفسه حين تساءل عما يؤمن به الغرب لم يجد الكثير مما يمكن أن يتحدث عنه. وما توصل إليه بعد عناء لا يكاد يتجاوز أربعاً أو خمساً من المسائل المهمة وغير الجوهرية، مثل كره القمع والاستبداد والابتزاز عن طريق الحرب، ومثل عدم جواز وجود جوعى ما دام هناك ما يكفي من الغذاء لإطعام الجميع، ومثل حق كل فرد في الحصول على أفضل فرصة ممكنة في الحياة. وليس عند الرجل ولا عند غيره شيء يمكن قوله في غايات الوجود ومصير الإنسان بعد الموت وتحديد ماهيات الخير والشر والحقوق والواجبات. ولا تظهر الآثار الخطيرة لعدم وجود حدود للخلاف في هذه الأمور إلا في أوقات الأزمات والشدائد التي يمكن أن تجتاح العالم الغربي في أي وقت.

لا ريب أن أكبر مشكلة تواجه البشرية في مجال اتفاق العقائد والآراء والأفكار واختلافها ـ كما في كل ما هو من باب الميزات والفضائل ـ هي كيف يمكن جعل الناس ينجون من مشكلات التوحد والتطابق الفكري، ومن مشكلات الخلاف الذي لا يقف عند أي حدود، أو بعبارة أخرى: كيف يمكن جعل الناس يختلفون ما دام الاختلاف يشكل ميزة في حياتهم، ويتوقفون عنه حين ينقلب إلى فوضى وضياع وتمزق.

من الواضح أن العقل البشري ـ بإمكاناته الفطرية وبخبراته

ومكتسباته العلمية والتقنية والثقافية عامة ـ غير مؤهل لمعالجة هذه المشكلة، ولذا فإن من العبث مطالبته بذلك، وليس هناك من سبيل أمام البشرية سوى (الوحي) المتمثل حصراً في نصوص الكتاب والسنة؛ وذلك لأسباب معروفة لا حاجة هنا إلى شرحها.

وإذا تأملنا في الرؤية الإسلامية في هذا الشأن وجدنا أنها بسيطة وحاسمة؛ حيث إن ما يجري فيه الخلاف ينقسم إلى قسمين: أمور نظرية وأمور عملية.

أما الأمور النظرية فإن الخلاف فيها لا يجوز أن يصل إلى ما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو ما فيه إجماع من الأئمة مثل فرضية الصلاة والزكاة والحج، ومثل حرمة الربا والزنى وقتل النفس والسرقة.. وما عدا ذلك فالخلاف فيه جائز وواقع، ويقوم بتمحيصه والترجيح فيه أهل الاختصاص. وهو خلاف لا نحتاج فيه إلى اتفاق، لأنه لا ضرر من استمراره، بل فيه نوع من توسيع الآفاق وتمرين الأذهان.

وأما ما يقع فيه الخلاف من الأمور التي يترتب عليها عمل في الحياة العامة، فإن من حق الحاكم المسلم أن يحسم الخلاف فيه ويرجح أحد الأقوال على غيره بحسب اجتهاده وبحسب ما يراه من المصلحة العامة، وأمثلة ذلك كثيرة، فقد اختلف الفقهاء في جواز التسعير للسلع كما اختلفوا في سن البلوغ، وللحاكم

المسلم أن يعتمد أحد الأقوال ويسن فيه قانوناً. وحين اختلف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في بعث جيش أسامة وفي قتال المرتدين حسم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الخلاف وأرسل جيش أسامة، كما شرع في قتال أهل الردة. وهكذا كل من يقوم على سلطة تنفيذية يحسم الخلاف العملي داخل سلطته بحسب اجتهاده.

لا ريب أنه ستظل هناك أمور (برزخية) يختلف فيها المختصون: هل هي من قبيل الأصول التي لا يصح فيها الاختلاف أو هي من قبيل الفروع، ولكنها بحمد الله ـ تعالى ـ تظل على كل حال محدودة، لا تعكر صفو الرؤية العامة لمسائل الخلاف والإجماع.

هذه الرؤية العظيمة تحتاج حتى تؤدي دورها في حياتنا الثقافية إلى خدمات كبيرة على كل المستويات، ومن تلك الخدمات إشاعة المعرفة بالأحكام الأساسية للشريعة الغراء بين أبناء المسلمين، وجعلها جزءاً أصيلاً من المناهج الدراسية، إلى جانب جعلها تشكل المنطلق والقاعدة التوجيهية للأعمال والجهود التربوية والإعلامية.

ومن وجه آخر فإن على الكتَّاب المسلمين أن ينافحوا عن هذه الرؤية بكل ما أوتوا من قوة وخبرة وحنكة في سبيل الذود عنها وشرحها وترسيخها في أذهان الصفوة. ومن واجب الحكومات الإسلامية أن تسن التشريعات التي تحول دون العبث

بالأصول والثوابت الإسلامية من قبل بعض الكتاب الذين يمارسون الاجتهاد دون أن يثقفوا أنفسهم بأساسيات الثقافة الإسلامية، وأولئك الذين تشبعوا بالأفكار العلمانية والإلحادية، وصار همُّهم إفساد عقول الناشئة والتشويش على الناس.

إن أوضاعنا الحضارية هشَّة، وإذا ما صرنا إلى الخلاف في كل شيء ـ كما جرى للغرب ـ فإن ذلك سيعني سلسلة طويلة من المشكلات وأشكال المعاناة على كل صعيد، وآمل أن يدرك ذلك المثقفون على نحو جيد.

(١٧)
الاستجابة للتقويم

حين نضع نظاماً للتعليم أو المرور أو العمل التطوعي. . . فإن ذلك النظام يكون ترجمة لرؤيتنا لعدد من الأمور، مثل الموارد والتكاليف والأهداف والنتائج المتوخاة وموقف الناس ومدى استيعابهم له والأدوات المستخدمة والمشكلات المتوقعة. . . وبما أن كل ذلك يدخل عليه نوع من التغيير والتعديل والحذف عند الدخول في ميدان التطبيق، فإن رؤيتنا لكفاءة ذلك النظام ستتأثر في النهاية، وتصبح لدينا معطيات وملاحظات جديدة، تحفزنا على إدخال تغييرات عليه. هذه هي سنة الله ـ تعالى ـ في الخلق، ولا فرق فيها بين أمة وأمة، ولا بين نظام ونظام ولا مجال ومجال.

إذا نظرنا في أحوال الدول اليوم وفي أحوال المنظمات والشركات والمؤسسات وجدنا أن القوي والناجح منها يتمتع بشفافية فائقة نحو النقد الموجه إليه، ونحو وضعية النظم التي يسير عليها والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، ولذا فإنك تراها وهي في ذروة نجاحها تخطط للمستقبل وتقوم بعمليات مراجعة لأعمالها، وإدخال تحسينات عليها، ويدخل في هذا الإطار تغييرها للشعارات التي تضعها على منتجاتها ولألوان أغلفتها،

كما يدخل فيه إعادة تأثيث مكاتبها وتحديث أجهزتها وخطوط إنتاجها، وهذا يكلفها مبالغ طائلة. وقد ذكر أن شركة (بيبسي) دفعت تكاليف تغيير الشعار الموجود على معلباتها نحواً من خمس مئة مليون دولار! إنها تبذل ذلك عن طيب خاطر، لأنها تريد إشعار زبائنها بقدرتها على التجديد والتطوير، لتلقي بعد ذلك في روعهم أن ذلك التجديد يستهدف الاستحواذ على رضاهم والتعبير عن الاهتمام بهم؛ ولذا فإن كثيراً من المنتجات صار يحمل كلمة (جديد) ومع أن ذلك قد لا يكون حقيقياً إلا أن العقل المعاصر يستجيب لهذا المعنى على نحو مدهش!

في المقابل تجد الدول والشركات والمؤسسات والمنظمات الضعيفة والمتخلفة وقد خيم عليها التقادم في كل شيء: مكاتب يعلوها الغبار، وأثاث متهالك، وقوانين يشكو الناس منها من نصف قرن، دون أن يفكر أحد في تغييرها، وإنتاجية في تراجع مستمر، وعمال وموظفون يبحثون عن بديل عن العمل فيها حتى ينجوا بأنفسهم. إنك حين تدخلها تشعر أنك أمام كيان هرم، يلفظ أنفاسه الأخيرة! الإنسان العادي يتأثر تأثراً بالغاً بهذا المشهد المحزن، فيعرض عن منتجات تلك المؤسسات سواء كانت فكرية أم مادية؛ لأن العقلية الحديثة تدمج على نحو ظاهر بين الشكل والمضمون والظاهر والباطن، والأشياء وطريقة تقديمها وبين الجوهري والهامشي، وذلك بسبب الحملات الإعلانية

الجبارة. ولا يستطيع من يريد أن يعيش زمانه أن يتجاهل هذا الأمر على نحو كلي.

وإليك بعض الإضاءات حول هذه القضية المهمة:

١- لا يمكن أن تحدث استجابة جيدة للتقويم وخضوع حسن لنتائج المراجعة إلا إذا امتلكنا الإرادة الصلبة للاعتراف بالحقيقة، وهذا ليس بالأمر الهين؛ فهناك جهات كثيرة ترفض على نحو قاطع ومستمر الإقرار بالضعف والقصور، بل إنها مستعدة لإخفاء الكثير من الأرقام وتزوير بعضها في سبيل حجب الحقيقة عن الأعين. وكل ذلك لأن الاعتراف بالحقيقة يتطلب إلقاء نوع من اللوم على المشرفين على أعمالها، كما أنه سيدل على نوع من الإخفاق، وقد يؤدي إلى الحد من بعض الطموحات والمكاسب غير المشروعة التي يؤمنها النظام الحالي.

والنتيجة هي تحجُّر النظم وتكلُّس الأفكار على الرغم من الإحساس العام بأن الأمور تزداد سوءاً. يبدو أن الحل لهذه المعضلة لن يأتي في مدة قصيرة، وإنما سيأتي ـ إن جاء ـ عن طريق إرساء تقاليد وأعراف ثقافية تمجد الاعتراف بالحقيقة، وتسهل على الناس بالتالي تحمل المسؤولية عن الأخطاء التي يقعون فيها، كما كان عليه الشأن في صدر الإسلام، وكما هو موجود اليوم لدى العديد من الدول والشعوب. وهذه التقاليد والأعراف لا يمكن إرساؤها إلا من خلال سيادة أجواء المفاتحة

والمصارحة وتحريك سوق النقد الاجتماعي الذي يعاني من سبات طال ليله!

٢- لا بد أن نتعود النظر إلى النظم المعمول بها وإلى الخطط والمشروعات من أفق النتائج التي حصلنا عليها من ورائها؛ فحين نضع برنامجاً تربوياً وتعليمياً لرفع سوية الطلاب في الرياضيات أو الإملاء، ثم لا يرتقي مستوى ما حصلنا عليه إلى الحدود التي بشرنا بها عند وضعه، وحين نضع خطة للحد من تسرب الطلاب من المدارس، ثم نجد بعد عشر سنوات من تطبيقها أن نسبة التسرب زادت، أو لم تنخفض، فعلينا ألا نتردد في الحكم على تلك الخطة بأنها غير ملائمة، وأن علينا القيام بتعديلها؛ لكن يبدو أننا لا نملك الوقت الكافي للنظر في نتائج الخطط التي بشرنا وابتهجنا طويلاً بها؛ لأننا وقعنا في مصيدة اليأس من أن نحصل على أي شيء مهما غيرنا أو بدلنا، أو لأننا نمارس عملية الهروب نحو الأمام باستمرار!

٣- حين نشعر أن نظاماً ما لا يعمل كما نرغب، ونتوقع، فيمكن أن نترك النظام على حاله، ونقوم بتغيير بعض الأمور المتصلة به قدر الإمكان. ولنأخذ أنظمة المرور نموذجاً لما نقول، فإذا وجدنا الناس لا يلتزمون بربط حزام الأمان، فإن من الممكن إلزام صانعي السيارات بتزويدها بأحزمة أمان تعمل آلياً بمجرد تشغيل السيارة، كما هو الشأن في بعض السيارات

المصنوعة في أمريكا. وإذا وجد أن السائقين يتجاوزون السرعة القصوى المقررة للسير على الطرقات، فيمكن حظر استيراد السيارات التي تسير بسرعة عالية، وتتجاوز كثيراً حدود السرعة المسموح بها في البلد وهكذا. . .

٤- إن كثيراً من النظم والقوانين يستمر فترات طويلة مع رداءته وسوئه وإخفاقه لا لشيء إلا لأنه لا يُعرف على وجه التحديد لماذا وضع، أي أن الأهداف التي وضع من أجلها غير موجودة، أو هي موجودة لكنها غامضة أو عامة، وبالتالي فإن الناس لا يستطيعون اكتشاف مدى كفاءة أداء تلك النظم ومدى صلاحيتها.

ومن هنا فإن مما يساعد على الاستجابة للتقويم أن تكون الأهداف واضحة ومفصَّلة حتى يمكن قياسها والتأكد بالتالي من معرفة ما أنجز منها، وعلى سبيل المثال فإنه حين توضع خطة لمكافحة البطالة، فإنه ينبغي أن يكون واضحاً ما الذي تستهدفه تلك الخطة من خفض في نسبة البطالة في خمس سنوات مثلاً، وما تكاليف ذلك على المستوى الإنساني وعلى المستوى المادي. . . وحين يتم ذلك على نحو مفصل، فإن من السهل بعد خمس سنوات أن نتحدث عن نسبة نجاح تلك الخطة، ومن أفق ذلك يمكن أن نتحدث عن التحويرات التي ينبغي إدخالها عليها. فإذا استطعنا أن نضيف إلى وضوح الأهداف النص على

طريقة التخلص من القوانين والنظم والخطط التي يثبت إخفاقها فإننا نكون قد قمنا بعمل جليل.

إن أمة الإسلام تعاني من مشكلات كبيرة في كثير من مجالات الحياة، وما لم ترهف إحساسها لتناذرات الأخطار التي تحدق بها، فإن المستقبل سيكون قاتماً، فنحن نعيش في عصر السرعة حيث يكون التباطؤ في الإصلاح قاتلاً ومدمراً.

(١٨)
لا لزيادة الحاجات المادية

الوعي الإسلامي في حاجة مستمرة إلى تجديد نفسه والتأكد من الخطوط الرئيسة التي توجهه، والاهتمامات الأساسية التي تشغله، وتستحوذ عليه، وإلا فمن السهل أن نجد أنفسنا وقد انجرفنا مع النموذج الذي تقدمه العولمة للإنسان المعاصر.

بناء عقلية معاصرة لا يعني تكوين العقلية التي تتفهم مطالب العصر فحسب، ولكنه يعني أيضاً تكوين العقلية التي تدرك مدى الانحراف الذي يتعرض له الإنسان المعاصر ومدى الجور والحيف الذي يقع على المبادىء والقيم الأساسية. من الواضح أن أصحاب المؤسسات المالية الكبرى وأصحاب المصانع والشركات يُفرضون على العالم من خلال رسائلهم الدعائية الجبارة والنافذة الرؤية التي تخدم مصالحهم وتنمي ثرواتهم. وتلك الرؤية تقوم على نحو جوهري على حث الناس على المزيد من الاستهلاك وزرع مشاعر العوز والحاجة والخوف في نفوسهم؛ كي يبحثوا دون ملل عن الامتلاء والتشبع المادي الذي لا يتم إلا من خلال جمع المال واقتناء الأشياء.

هذه الرؤية تخترق حياة الإنسان في الدول الصناعية الأكثر تقدماً نتيجة فلسفة متكاملة تقوم على حذف شيء اسمه العالم

الأخروي بما يعنيه ذلك من توجيه أنشطة الحياة كلها نحو تحقيق الذات في الدنيا من خلال المزيد من السيطرة والشهرة والمتعة، وهذا مصادم على نحو جذري للمنطق الذي قامت عليه كل دعوات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عبر التاريخ، ذلك المنطق الذي لا يرى في الدنيا، وكل ما يتصل بها من نجاح ونفوذ ومتعة الشيء الذي يستحق أن يكرس الإنسان حياته من أجله، فالدنيا هي مزرعة الآخرة، أو هي الفرصة الذهبية والوحيدة التي يجب أن نستغلها من أجل السعي إلى الفوز بالسعادة الأبدية في الآخرة.

إن الدنيا في الرؤية الإسلامية تأخذ طابع الوسيلة وطابع المؤقت والعابر؛ والآخرة تأخذ طابع الغاية والنهائي والدائم؛ والنصوص في هذا كثيرة جداً، منها قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾[1].

أصحاب المصالح التجارية وأرباب رؤوس الأموال يريدون من كل إنسان أن يزيد في استهلاكه حتى يزيدوا هم في إنتاجهم، ولذا فإن المبدأ الذي يقوم عليه الإعلان التجاري هو المزيد من الاستهلاك من أجل المزيد من الإنتاج، أي أن المزيد من الإنتاج

(١) سورة آل عمران: ١٤.

صار هو الهدف الذي يجب أن تسخر له كل الإمكانات المعنوية والمادية. وهذا في الحقيقة مباين لجوهر الرؤية التي سادت على مدار التاريخ والتي كانت أقرب إلى الرؤية الإسلامية. وقد كانت تلك الرؤية تقوم على مبدأ «الإنتاج من أجل الاستهلاك» أي أن الإنسان ينتج ليلبي حاجاته الاستهلاكية. هذا الانقلاب المخيف أدى إلى أن يصبح الإنسان من حيث لا يشعر مسخراً للعمل وزيادة الإنتاج، وترتب على هذا تراجع الأنشطة الروحية والأدبية التي تميز حياة البشر عن حياة السوائم الذليلة وعن وضعية الآلة الصماء؛ كما ترتب عليه تلوث البيئة وإجهاد الأرض واستنفاد سريع لمصادر الطاقة غير المتجددة. إنها في حقيقة الأمر مأساة كبرى يتعرض لها الإنسان، ويتعرض لها كوكب الأرض أيضاً.

وإليك بعض الملاحظات المختصرة حول هذه القضية:

١- نفوسنا مجبولة على حب الدنيا والاستكثار من متاعها وأشيائها. ومهما نال المرء من المال وما يُشترى بالمال، فإنه سيظل يشعر بعدم الاكتفاء، إنه ـ كما قالوا ـ كشارب ماء البحر كلما شرب ازداد عطشاً. وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض» قيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا». وقال منبهاً إلى ما تنطوي عليه ميولنا إلى الدنيا من ابتلاء وتحدٍّ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون». هذا المعنى قد

غاب عن السواد الأعظم من المسلمين اليوم؛ حيث إن من النادر أن تجد من يخاف ألا يقوم بواجب النعمة التي يسعى ليل نهار إلى الحصول عليها، ومن يشعر أنه من خلال تكديس الأموال والتوسع في امتلاك الأشياء ـ داخل في امتحان من نوع جديد. قد ينجح فيه وقد لا ينجح؛ كما أنك لا تكاد تجد من يخطط لإيقاف السعي وراء الدنيا عند حدود معينة حتى لا يؤثر في أنشطته الروحية والتعبدية وفي واجباته الدعوية والاجتماعية!

٢- الحرية في الرؤية الإسلامية من القيم العظيمة جداً، وهي لا تعني حرية التعبير وحرية التملك والتنقل فحسب، وإنما تعني التحرر من وطأة الرغبات والعادات السيئة ووطأة الميول نحو الترفُّه والتمتع، والتحرر من استعباد الذات للشهرة والنفوذ؛ لأن الانغماس في هذه الأمور يتقاطع مع العبودية الخالصة لله ـ تعالى ـ.

إن المسلم حين يستطيع إيقاف رغباته المادية عند حد معين يوفر لنفسه الفرصة لتحقيق الذات عن طريق الرفاهية الروحية والشعور بنشوة الانتصار والغلبة ونشوة العبودية لله ـ تعالى ـ والثقة بأنه يعمل ما عليه أن يعمله؛ مما يولد في النهاية الشعور بالاستمرارية على النهج القويم وتوقع الفوز برضوان الله تعالى.

الوسيلة لذلك هي القناعة والاقتصاد في الإنفاق وحذف بعض الكماليات، وغض الطرف عمن يتمتع بمستويات معيشية أعلى. وقد ورد الثناء على هذه الوضعية في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

«ليس الغنى من كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس». وقوله: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه».

٣- زيادة الحاجات المادية وتحول الكثير من الكماليات إلى حاجيات، وتباري الناس في إظهار القدرة على شراء الأغلى والأنفس، أوجد لدى الأمة العديد من الأمراض الخلقية والاجتماعية، وضخَّم من المشكلات الاقتصادية والبيئية. وعلى سبيل التمثيل لا الحصر فإن الشعور بالعوز للمزيد من تكديس الأشياء وتلبية الميول إلى الاستمتاع بالمرفهات من الأمور التي أشاعت في الناس الحسد والتسخط على الله ـ تعالى ـ كما أشاعت مرض المظهرية والشكلية واللذين يُعبَّر بهما غالباً عن طريق الأشياء والممتلكات، وهذه كلها أمور مقلقة ومزعجة، كما أنها تدفع إلى الكذب والتباغض والتزوير...

أما على الصعيد الاقتصادي فأمة الإسلام لا تمتلك الكثير من الأموال التي توفر بها حاجاتها الأساسية على مستوى الغذاء والدواء والتعليم...، وهي إلى جانب هذا تتمتع بزيادة سكانية عالية، وهي في حاجة ـ حتى لا تتدهور أوضاع الأجيال الجديدة أكثر فأكثر ـ إلى إيجاد فرص وظيفية جديدة، وتلك الفرص لا تأتي إلا من خلال توفير بعض الدخل من أجل إعادة استثماره في دورة اقتصادية جديدة. وإذا علمنا أن أكثر ما نترفَّه به يُستورد من خارج البلاد الإسلامية أدركنا الخطورة البالغة التي يشكلها التمادي في الإنفاق الترفي على الاقتصادات الوطنية!

٤ - أرجو ألا يفهم من الكلام السابق أنني أدعو المسلم الملتزم إلى القعود عن طلب الرزق وإلى التكاسل وترك شأن المال والاقتصاد والاستثمار للآخرين يتخذون منه وسائل للسيطرة والإفساد والمزيد من الضياع. . . إن هذا ليس وارداً، فالمسلم مطالب بأن يؤمّن الكفاية لنفسه ولمن يعول، وإذا استطاع أن يكسب أكثر من حاجته على نية التصدق وصلة الأرحام، أو على نية توفير فرص عمل جديدة لإخوانه المسلمين، فإنه بذلك الكسب يخرج من دائرة المباح إلى دائرة العبادة والتقرب إلى الله ـ تعالى ـ.

يقول ـ سبحانه ـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[١]. ويقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لأن يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أغناه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه». وقال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» قال أبو هريرة: وأحسبه قال: «وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر».

إن الإنتاجية لدى الأمة منخفضة إذا ما قيست بالأمم المتقدمة، ومع هذا الانخفاض فإننا مكبّلون بعادات إنفاقية وبذخية ليست موجودة أيضاً لدى عدد كبير من أبناء الأمم الثرية. والنظرية الإسلامية معاكسة تماماً لهذه الوضعية. وتصور معي لو أن مستوى

(١) سورة الجمعة: ١٠.

إنتاجية الإنسان المسلم ارتفع ليصل إلى مستوى إنتاجية الإنسان في الغرب في الوقت الذي نقوم فيه بترشيد سلوكنا الإنفاقي؛ إن النتيجة ستكون مذهلة لصالح العناصر الضعيفة في المجتمع، ولصالح الاقتصاد الوطني وصالح مركز الأمة على الصعيد العالمي.



(١٩)
تخليط الصفوة

من الطبيعي أن يقوم كل كاتب بمخاطبة شريحة اجتماعية وثقافية محددة، وأن يجتهد في تحديد ملامح تلك الشريحة وتلمس حاجاتها المعرفية. وهذا نابع من كوننا عاجزين عن صياغة خطاب يلائم كل الناس، ويحقق فيهم تأثيراً جيداً على قدم المساواة.

الكتّاب والمثقفون والدعاة والمشتغلون في الحقل الإعلامي والسياسي، كل أولئك يشكلون على مستويات مختلفة القيادة الثقافية في الأمة، وينتظر منهم الناس بحكم ريادتهم وخبراتهم القول الصائب والتحليل الدقيق والرؤية الواضحة، وهذا ما يقومون به فعلاً في كثير من الأحيان.

الخطأ وسوء التقدير والرؤية الأحادية والتسرع في إصدار الأحكام. . . كل ذلك من نتائج ما يتصف به البشر من قصور ومحدودية. ولا يملك كبار المفكرين والمثقفين أي ضمانة للسلامة من الوقوع في ذلك، لكنهم يجتهدون على نحو دائم في أن يقللوا من أضرار ذلك القصور إلى أدنى حد ممكن. في حالات الأزمات والشدائد والفتن والصراعات الدامية يشتد

الطلب على الوضوح والبيان، حيث يشعر الناس أن المزيد من الشعور بالأمان مرتبط إلى حدٍّ كبير بالحصول على المزيد من المعرفة والفهم. وهذا ما يجعلهم يضغطون على الصفوة كي تقوم بتوفير التحليلات والمعلومات والرؤى التي تتيح لهم ذلك. ويجد رواد الثقافة في ذلك فرصة للتواصل مع الناس وفرصة لإشباع رغبتهم في الكلام ولتوكيد سيطرتهم على العامة وأشباه العامة. ومن هنا فإن سيلاً جراراً من الكتابات والمقاربات والتحليلات يغمر المشهد الثقافي إلى حد إرباك عقول المتلقين وجعلها عاجزة عن الاستيعاب. وليس هناك ـ على ما يبدو ـ أي علاج للحد من ذلك!

إن لدينا عدداً من الأمور الأساسية التي تدفع المثقف ـ دون شعور منه في أحيان كثيرة ـ إلى أن يهرف بما لا يعرف، وإلى أن يلقي بالقول على عواهنه دون تدقيق أو شعور بعظم المسؤولية التي يتحملها؛ ومن تلك الأمور:

١ ـ تتيح هشاشة البنى الثقافية والمعرفية وفقدها للتماسك والمنطقية لنا جميعاً أن نتأرجح فيما نقول، ونكتب ضمن مساحات واسعة من التدليل والتنظير، حيث تكون الأسباب والحقائق والنتائج والعلاقات ـ في غالب الأمر ـ عبارة عن مدركات رمزية يصعب لمسها وتحديدها؛ ولا يستطيع المثقف مهما كان بارعاً ومخلصاً وموضوعياً وحريصاً على الحقيقة أن ينجو من تأثيرات هذه الوضعية، ولذا فإننا نرى أحياناً كتّاباً درسوا

في جامعة واحدة، ويشتغلون على موضوع واحد، ومع ذلك فإن رؤاهم وتحليلاتهم تتباين تبايناً غير قليل.

تلك الطبيعة التي أشرنا إليها تسمح للواحد من الصفوة أن يساير هواه إلى الحد الأقصى، وأن يقوم بإلباسه لبوس الاجتهاد الشخصي، وينطلي ذلك على فريق كبير من الناس، كما تتيح له أن يصور للناس رأياً شخصياً على أنه رأي مجموعة كبيرة من الباحثين؛ بالإضافة إلى أنها تمكنه من أن يختلق أسباباً واهية لحادثة من الحوادث أو وضعية من الوضعيات، وأن يقوم بتصويرها وتسويقها على أنها أسباب حقيقية، لا تقبل الشك ولا الجدال. ومع أن كثيراً من هذا يتم عن عمد وإصرار إلا أن الوضعية الثقافية والعقلية لدى بعض الكتاب قد تسمح لهم بالقيام بكثير من ذلك دون أن يشعر أنه ارتكب خطأ أو خرج عن حدود المنهج العلمي!

٢- وضعية المخاطبين والمستهدفين بأعمال الصفوة ذات تأثير حيوي ومهم في أعمالهم وطروحاتهم وتحليلاتهم؛ فقد أثبتت التجربة التاريخية لأمة الإسلام أن المجتمعات التي تتمتع بصفوة مستنيرة، لكنها تفقد الاستنارة العامة، تتعرض لتحكُّم الصفوة في شؤونها، كما أن الصفوة فيها قد تتعرض للانحطاط والانحراف بسبب عجز معظم الناس عن اتخاذ الموقف المعرفي الصحيح مما يقال لها.

كلما كانت الصفوة قليلة، وكلما كانت المسافات المعرفية التي تفصل بينها وبين أبناء المجتمع كبيرة تضاءلت الرقابة الاجتماعية على طروحات المثقفين، وفقد الناس الموقف الراشد الحكيم الذي يتيح لهم تحفيز الصفوة على الارتقاء وقبل ذلك الحيلولة بينها وبين التدهور، حيث إن هناك إمكانية دائمة للتحول من قول الحق إلى اتباع الهوى، ومن خدمة الأمة إلى خدمة مصلحة أو سلطة.

وإذا رجعنا إلى تاريخنا وجدنا كتب التراجم ـ مثلاً ـ مملوءة بحكايات وميزات وخصائص وتشنيعات وغرائب وعجائب وخرافات يمجها العقل ويرفضها المنطق ويأباها المنهج القويم والعلم الصحيح، ومثل هذا موجود في واقعنا اليوم أيضاً، وما ذاك إلا لأن معظم المستهلكين لمنتجات الصفوة غير عارفين بالحدود الفاصلة بين المعقول واللامعقول وبين ما تقتضيه سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق وما تأباه، وبين ما تسمح به روح العصر وما تمنعه. . .

وقد استطاعت الأمم المتقدمة أن ترفع عتبة الثقافة لدى الشرائح الاجتماعية الدنيا إلى حدود مقبولة، وبذلك تمكنت من رفع درجة المحاكمة العقلية لديها، وبذلك أيضاً تم تضييق مجال المناورة والتأرجح لدى الصفوة خلال قيامها بمخاطبة الجماهير وتثقيفهم. وهذا واضح جداً في معالجة الصفوة في الغرب للقضايا المحلية والداخلية حيث يكون الجمهور ـ في الغالب ـ

على دراية واسعة بها، كما أنه واضح جداً في معالجة مثقفي الغرب للقضايا الخارجية والبعيدة عن متناول خبرات الجماهير هناك، حيث ترى الكثير من السذاجة في الطرح والكثير من الخطأ والجهل والتحامل، والذي يتم بسبب من القصور المعرفي أو بسبب المكر والتآمر.

٣- التزام الإنسان المثقف بأن يبدي رأيه باستمرار في كل حدث يقع وكل مناسبة تعرض، كثيراً ما يكون سبباً في دفع المثقف إلى أن يلقي بالكلام دون التأكد من البراهين التي تتوفر لديه، ودون مبالاة بمدى منطقية ما يقوله أو مطابقته للواقع، ونلاحظ هذا جلياً لدى معظم كتاب الزوايا والمقالات اليومية والأسبوعية. إن التزام المثقف بالكتابة على نحو مستمر يجعل شفافيته نحو الجودة ضعيفة، ويسيطر عليه مع الأيام شعور يبيح له أن يقول (أي كلام) لأن المهم ليس ما يقوله، ولكن أن يقول ما يريد قوله حسب التوقيت المقرر!

٤- تقدير الناس للمثقف يجعله يشعر بالمسؤولية نحوهم، وبنوع من الريادة الثقافية لهم، وهذا يدفعه إلى الالتزام بقضاياهم والدفاع عنها، سواء أكانت قضايا داخلية أم خارجية، وحين تقع أمة المثقف أو جماعته أو حزبه. . . في مشكلة كبرى وتوجَّه إليها السهام وتكال لها التهم من كل صوب، فإنه يجد نفسه مضطراً لأن يجمع بين صفة العارف بالأوضاع، الفاهم للأمور وصفة

(المناضل) الملتزم بتحقيق قدر من النجاح في إثبات صحة القضايا التي يبرهن عليها والنجاح في الدفاع عن التهم والأباطيل التي التزم بتفنيدها ودحضها. والحقيقة أن أي واحد منا يستطيع أن ينجح في هذه المهمة نجاحاً مقنعاً لكثير من فئات المجتمع، وقد يصبح بطلاً وطنياً ورمزاً من رموز الكفاح والصمود، لكن ذلك لا يكون في معظم الأحيان من دون ثمن. وذلك الثمن يكون في العادة من رصيد الحقيقة والانفتاح والعالمية والمنطق والروية وسعة الرؤية...

إنه لشيء جميل ومطلوب أن يعيش المرء مدافعاً عن معتقد أساسي أو مبدأ عظيم ورؤية إصلاحية، لكن علينا أن نكون على حذر من أن يكون ذلك على حساب الإحساس بالواقع وحساب مبادىء التفكير الموضوعي التي نؤمن بها، وإلا فإن الواحد منا قد يمارس دوراً تضليلياً يضر الأمة أكثر مما ينفعها. والناس بحسهم الذي لا يكذب سوف يكتشفون ـ إن عاجلاً وإن آجلاً ـ أننا لم ننصح لهم، ولم نملكهم الرؤية الصحيحة التي يحتاجون إليها. إذا تأملت في حياتنا المعاصرة وجدت محللين سياسيين ومراسلي صحف وإذاعات أخذوا على أنفسهم أن يسترضوا (جنرالات المقاهي) ومتحدثي المسامرات والمجالس الشعبية؛ ووجدت أيضاً خطباء ووعاظاً يرغبون في جمع الناس حولهم بأي ثمن، ولو كان سوق الأحاديث الموضوعة والحكايات الغريبة؛ إنهم باعة أوهام لجمهور غمره السُّذج والعَوَام دون الشعور

بالحرج من الوقوع في الإثم أو الشعور بأنهم يمارسون عدواناً صارخاً على المنهج الرباني الأقوم أو على الحقيقة الناصعة أو الواقع الملموس. إنها لموازنة دقيقة جداً تلك التي تملي عليك أن تمارس دور المفكر المبدع والمنصف ودور الجندي الذي جعل مهمته حراسة الحدود وتنفيذ الأوامر مهما كان مضمونها.

سيكون في إمكاننا أن نشاهد كل العوامل والأسباب ـ مما ذكرنا ومما لم نذكره ـ التي تؤدي إلى تخليط الصفوة ومجافاتها للحق والحقيقة في البركان الثقافي والإعلامي والسياسي الذي فجره الهجوم على أمريكا فيما بات يعرف بأحداث (١١ سبتمبر) حيث إنك تجد هشاشة الثقافة وغفلة الجماهير وإيثار المثقف الانتماء على الحقيقة... ترى كل ذلك وغيره وقد دخل في نسيج معقد من الطروحات والتحليلات والمقولات... في شرق العالم وغربه. وقد وضح للعيان أن التقدم الثقافي ـ الذي كان يظن أن الغرب قد حاز نصيب الأسد منه ـ هو أقل بكثير مما كنا نتوهم، وأن الذين استطاعوا أن يظلوا (فوق الغربال) هم قلة قليلة من المثقفين. ولا يكاد يكون هناك فارق ذو قيمة بين صفوة تعيش في عالم متقدم وصفوة تعيش في عالم نامٍ أو متخلف. وهذا في الحقيقة يشكل انتكاسة مخيفة للعديد من المفاهيم والمحصلات الحضارية المعاصرة!

إذا تأملنا في تحليلات كبار المثقفين الغربيين لأحداث (١١ سبتمبر) فإننا سنجد حزمة كبيرة من الأوهام والمقولات التي لا

تستند إلى خبرة حقيقية بواقع العالم الإسلامي، وهي إما صادرة عن جهل عريض لا تستقيم معه الريادة لأي مثقف مرموق، وإما صادرة عن تحامل وتحيُّز يجعل أمانة البحث العلمي والتزام الموضوعية لديه في مهب الريح، وهما أمران أحلاهما مر!

وفي إمكاننا هنا أن نأخذ واحداً من كبار مفكري السياسة في أمريكا نموذجاً على ما نقول، وهو (فرانسوا فوكوياما) صاحب كتاب (نهاية التاريخ) ومستشار وزارة الخارجية الأمريكية، فقد كتب مقالاً في مجلة (نيوز ويك) في طبعتها العربية بتاريخ (٢٥/ ١٢/ ٢٠٠١) عمد فيه إلى اعتبار (الأصولية الإسلامية) عدواً للغرب أخطر من الشيوعية. ولست هنا في صدد استعراض كل ما في تلك المقالة من جهل وتزوير، ولكن أشير إلى جانبين منها:

الأول: جهله بتشخيص حالة العالم الإسلامي.

والثاني: خطؤه في تصوره لمعالجة ما سماه (الأصولية الإسلامية).

أما في الجانب الأول فقد ذكر (فوكوياما) أن الإسلام هو الحضارة الرئيسة الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال فيها بأن لها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة. وقال أيضاً: إن الإسلام وحده ولَّد على نحو مكرر في الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة ترفض لا السياسات الغربية فحسب، بل المبدأ

الأكثر أساسية للحداثة المتمثل في التسامح الديني إلخ. . . من الواضح أن الباحث الكبير جعل من الغرب ـ فكراً وحضارة ـ محكاً ومعياراً نهائياً، ثم أخذ يحاكم شعوب العالم إليه، وكأن أوضاع العالم الغربي عبارة عن نصوص مقدسة تتعالى على الجدال والنقد، وليس أمام العالم سوى التسليم والاتباع؛ مع أن الأدبيات الغربية مملوءة بالشكاوى من تردي أحوال الأسرة وانتشار الشذوذ الجنسي والمخدرات والمسكرات والجرائم بأنواعها المختلفة. . . ومملوءة بالتحليلات التي تشير إلى أن الإنسان هناك ما عاد يعرف بماذا يؤمن، كما أنه لا يعرف بالضبط الأهداف النهائية والغايات العليا التي أوجد على هذه الأرض من أجل العمل على تحقيقها!

كان على (فوكوياما) أن يسأل نفسه: لماذا يفجر شباب في عمر الورود أنفسهم من أجل إلحاق الضرر بأشخاص لا يعرفونهم، ولماذا لم يفعلوا ذلك في مواجهة دولة مثل سويسرا أو فرنسا أو الصين. . . ولو أنه تساءل لوجد الجواب بين يديه، وهو أن على الذي يجعل من نفسه شرطياً على العالم أن يتحمل ما يواجهه الشرطي في حالات الشغب، وأن على الذي يقوم بمناصرة الغاصب على احتلال أراضي الغير من خلال تقديم المال والسلاح والدعم الإعلامي والدولي ألا يغضب إذا ناله ما ينال الغاصب والمحتل ما دام رضي لنفسه أن يقف مع القوة في مواجهة القانون، ومع الباطل في مواجهة الحق.

ولو أن (فوكوياما) قرأ التاريخ جيداً لوجد أن العقائد وحدها لا تولّد حركات احتجاجية عنيفة وواسعة، وإنما الذي يولدها هو القهر والظلم والبطش وحشر الناس في زاوية ضيقة. نعم إن العقائد تقدم الأساس الفكري وتوجه الأنشطة الاحتجاجية، لكنها لا تنشئها، ولا تبعثها من العدم.

ويزعم الرجل أن حضارة الإسلام لها مشاكل أساسية مع (الحداثة)، ولست أدري ما الذي يريده بـ (الحداثة) والعالم الإسلامي بطوله وعرضه مشرع الأبواب للتعامل مع كل المنتجات الحديثة، وشعوبه تتطلع برغبة قوية لأن تعيش عصرها بكل أبعاده. وأوضاعها العامة شاهد على ذلك. أما إذا كان يريد بالحداثة التبعية للغرب والسير في ركابه أينما اتجه فهو مخطىء، فالمسلمون لا يستطيعون أن يكونوا مثل الغرب أو تابعين له، لأن المنهج الذي يؤمنون به يمنحهم خصوصية وتميزاً يحولان بينهم وبين الاندماج في أي حضارة أخرى. وهذا ينسجم مع التعددية الثقافية التي ينادي بها الغرب، بل إنه يزعم أنه المؤمن الوحيد بها!

حين تكون الحداثة عبارة عن تبعية للآخر، فإن المسلمين لا ينفردون بمقاومتها بل يشاركهم في ذلك كل التيارات القومية والوطنية في العالم أجمع على اختلاف مذاهبه وعقائده وثقافاته.

ومن العجيب حقاً أن يزعم (فوكوياما) أن الإسلام وحده هو الذي بات يولّد ما سماه (الحركات الأصولية) التي ترفض

الحداثة وترفض مبدأ التسامح الديني. ونحن نقول في البداية: إن المسلمين لا ينكرون أن لديهم أموراً كثيرة تحتاج إلى تصحيح، ومفكرونا ومصلحونا يكتبون ويحاضرون على نحو مستمر من أجل التخلص من الأخطاء التي تعوق مسيرتنا. ونحن لا ننكر أيضاً أنه على مدار التاريخ الإسلامي ظل هناك من يفهم الإسلام فهماً خاطئاً، ويستخدم وسائل عنيفة أو غير مشروعة في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين ـ الخوارج نموذجاً ـ لكن الواقع يشهد كما يشهد التاريخ أن فكر الاعتدال والتسامح مع المخالف ظل دائماً هو المهيمن، وظل من يمكن أن نسميهم بـ (الغلاة) مهمشين على مستوى القيادة الثقافية والإصلاحية والسياسية، لأنهم لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة جداً في العالم الإسلامي، قد لا تصل إلى واحد في الألف.

ولا يشكل المسلمون أي استثناء في هذا، فما سماه بـ (الأصولية) موجود في العالم كله، ولدى الديانات والحضارات كلها، فهناك أصولية يهودية شريرة ومجرمة تقتل الأطفال في فلسطين بمساعدة شبه مطلقة من الغرب الذي يرى (فوكوياما) أنه يقدم نموذجاً يحتذى في التسامح الديني. وفي الهند أصولية هندوسية تهدم المساجد لتبني معابد لها على أنقاضها، وهي ليست مهمشة ولا صغيرة، وإنما تساهم في إدارة الحكم في بلد الألف مليون.

وفي الغرب نفسه أصوليات تاريخية ومعاصرة، والنازيون الجدد نموذج على تلك الأصوليات، والذين فجروا مبنى التجارة العالمي في (أوكلاهوما) في أمريكا نموذج آخر للجماعات المتطرفة في أمريكا. وجماعة (أوم) أو (الحقيقة المطلقة) في اليابان برهان آخر على أن لدى كل أمة وكل دين وكل حضارة من يسيء الفهم أو يسيء التصرف. وآمل أن تعلّم الأيام القادمة (فوكوياما) وأشياعه أسرار نشوء الأصوليات، ولا سيما أن نجم أحزاب اليمين المتطرف في أوربا بات يصعد ويلمع أكثر فأكثر مع كل انتخابات جديدة!

الجانب الثاني هو رؤية (فوكوياما) لخروج العالم الإسلامي ـ كما يزعم ـ من مأزقه، فهو يرى أنه ليس أمام العالم الإسلامي للخروج من مأزق (الأصولية) سوى الاتجاه إلى (العلمانية) التي تكفل الحريات وترسي قواعد التسامح الديني.

العلمانية ـ والتي تعني عدم تقيد الدولة في تشريعاتها ومجمل تصرفاتها ومواقفها بأحكام الدين ـ ليست مطابقة للديمقراطية ولا الليبرالية، فدول المعسكر الاشتراكي كانت مغرقة في علمانيتها، بل كانت قد انسلخت من الدين على نحو كامل، ولم تكن ليبرالية ولا ديمقراطية، ولم تمارس أي شكل من التسامح الديني مع المسلمين في روسيا أو أوروبا الشرقية، وقد دخل معها الغرب في حرب باردة طويلة الأمد إلى أن انهارت. وهناك في

آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية دول كثيرة جداً لا تدين بأي دين، ومع ذلك فإن عدم تدينها لم يجعلها ديمقراطية. هذا كله يعني أن المسلمين إذا كانوا فعلاً في مأزق فإن العلمانية لن تكون هي السبيل للخلاص من ذلك المأزق.

مشكلتنا مع كتّاب الغرب مثل مشكلتنا مع حكّامه، فهم يطلقون العبارات الرنانة، ويرفضون تفسيرها، وموقفهم من مسألة (تعريف الإرهاب) مشهور وواضح للعيان؛ لأن التحديد للمصطلحات يضطرهم إلى الانضواء تحت لواء القانون الدولي الذي صاغوه بأيديهم، وهم الآن يحاولون طمسه لأنه يحد من استخدام القوة الغاشمة الذي أدمنوه. ومصطلح (التسامح الديني) هو الآخر مصطلح غامض. وإذا كان (فوكوياما) يريد من المسلمين أن يكون موقفهم من الأديان مثل موقف الناس في الغرب فهذا غير ممكن؛ لأنهم هناك لا يتقيدون في سلوكهم اليومي بتعاليم أي دين لا المسيحية ولا غيرها، ولهذا فإن الكتّاب الغربيين لا يستطيعون فهم ما يمكن أن يكون للعقيدة من دور في صياغة سلوك الناس وعلاقاتهم.

ونحن المسلمين مع اعتقادنا أن ديننا هو الدين الصحيح إلا أننا لا نُكره أحداً على الدخول فيه؛ وأهل الديانات المختلفة يعيشون بين المسلمين منذ فجر الإسلام، وهناك أحكام ووصايا كثيرة تدعو إلى المحافظة على حقوقهم مما هو معلوم ومشهور.

على أن الغرب يسير شيئاً فشيئاً نحو التشدد تجاه التعدد الثقافي والديني، وكلنا نعرف أنه تم فصل طالبات مسلمات من المدارس في فرنسا بسبب ارتداء الحجاب، كما نعرف أنه تم فصل امرأة اختارها شعبها لتمثله في برلمان إحدى الدول التي تلقى مباركة الغرب ومساندته بسبب ارتداء الحجاب دون الاهتمام بالذين اختاروها. والحبل على الجرار...

ويبدو أن (فوكوياما) يريد من المسلمين حتى لا يكونوا أصوليين ألاّ يؤمنوا بأي شيء، ويريد منهم حتى يكونوا متسامحين أن يتنازلوا عن حقوقهم وكرامتهم واستقلالهم وهذا لا يقبل به لا المسلمون ولا غيرهم.

على الضفة الأخرى في عالمنا الإسلامي حدثت أيضاً اضطرابات ثقافية، دلّت على أن الصفوة لدينا أيضاً تخلِّط وتتجاوز الحقائق، وتأخذ بالظنون... فعندما وقعت أحداث (١١سبتمبر) صار عدد كبير من المثقفين والدعاة والكتّاب في عالمنا الإسلامي الرحيب يصورون للناس أن أمريكا دخلت بسبب تلك الأحداث في مرحلة الأفول والاضمحلال النهائي بحجة أن اقتصادها لا يستطيع تحمل الكارثة التي حلَّت به؛ وذلك يعبر عن جهل كبير بطبيعة اقتصاد أمريكا وحجمه الهائل، لكن بعض المثقفين لدينا حولوا ما يتمنونه أو يتوهمونه إلى معطيات علمية، وصاغوها في رؤى وتحليلات فكرية وصحفية تبدو أنها مقنعة.

وحين بدأت أمريكا في ضرب أفغانستان صار بعض الكتَّاب لدينا ينقل أخباراً وتحليلات تفيد أن أمريكا خسرت الألوف من جنودها هناك، وأن أفغانستان تحولت بالنسبة إليها إلى (فيتنام) ثانية! ومع أن الأمريكان لا يُظهرون كل ما يتكبدونه من خسائر إلا أنهم لا يستطيعون التستر على خسائر تبلغ ألوف الرجال لأسباب تتعلق بنظام الحكم هناك وبحرية الصحافة وقوة المعارضة. . .

ومن كتّابنا أيضاً من جعل حكومات الغرب صورة طبق الأصل عن شعوبها، وبدأ يكيل التهم للحضارة الغربية كلها؛ وهذا ليس من الإنصاف، ففي أمريكا وغيرها من الدول الغربية مفارقات كثيرة بين الحكام والشعوب؛ والشعوب هناك أقرب إلى الطيبة والانفتاح والتسامح. ومعظم الناس هناك لا يعرفون شيئاً عن الإسلام إلا ما تسرِّبه إليهم وسائل الإعلام المغرضة والمأجورة؛ والدليل على ذلك أن كثيرين منهم اندفعوا إلى القراءة عن الإسلام وحضور دورات تشرح تعاليمه.

إن الشعوب في الغرب تشكّل وجه أوروبا وأمريكا الحقيقي، والحكومات هناك تشكل القناع الذي صنعته سياسات تعد امتداداً للروح الاستعمارية التي سادت في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

كثيرون من كتابنا أثاروا مسألة حقوق الإنسان في الغرب ومسألة انتهاكها ولا سيما في أمريكا، وقاموا بحملات صحفية

مكثفة لبيان حجم التراجع الذي حدث عقب أحداث (١١ سبتمبر) على هذا الصعيد. والحقيقة أن تجاوز الأمريكيين وخرقهم لحقوق الإنسان أمر ظاهر ومزعج، ويشكل انتكاسة حقيقية في أمر يعده الغربيون واحداً من أهم إنجازاتهم التاريخية وواحداً من أهم ما يفاخرون به الأمم الأخرى، لكن لا يجوز لتلك الحملات أن تغيِّب وعي الناس إلى درجة الظن أن الوضع الحقوقي والقانوني للفرد المسلم في عالمنا الإسلامي هو مثال يحتذى أو أنه أفضل مما لدى الغرب، فالحقيقة المرة أن معظم الشعوب الإسلامية تعاني على هذا الصعيد معاناة لا تقل في أي حال عن معاناة المسلمين في الغرب!

بعد كل هذا قد يتساءل الإنسان العادي: ما حيلتنا في التعامل مع الصفوة؟

في اعتقادي أن علينا معاشر الدعاة والكتاب والمثقفين والإعلاميين أن نتنبَّه إلى التأثيرات الخطيرة التي تتركها الكلمة المسموعة والمقروءة في عقول الناس ومشاعرهم؛ وقد كانوا يقولون: «الناس مع العلماء كالأطفال في حجور أمهاتهم».

ومن وجه آخر فإن تحسين مستوى وعي الناس ومستوى خبرتهم ومعرفتهم بحقائق الوقائع والأوضاع يعد أكبر صمام أمان يحول دون تردي الصفوة وتخليطها، وهذا لن يحدث إلا من خلال المزيد من التثقف والمزيد من محاولات الفهم والإدراك الجيد. وهذه من مسؤولية الناس.

(٢٠)
حين يكون التقدم مغامرة

التقدم المادي والعمراني يشكل في حد ذاته قيمة إنسانية، إنه دليل على فعالية الإنسان وجدارته وزيادة وعيه وتأثيره في البيئة المحيطة. وذلك التقدم مهم من وجه آخر لمواجهة الزيادة السكانية، حيث إن كثيراً من الموارد هو بطبيعته محدود، ولا يمكن تنميته إلا من خلال المزيد من الجهد البشري والمزيد من التنظيم العمراني. وأعتقد أن هذا لم يعد اليوم موضع جدال لدى شعوب العالم أو لدى معظمها على الأقل؛ لكن علينا دائماً أن نتذكر أن العظمة الحقيقية للإنسان لا تكمن في عظمة الرفاهية التي يحققها، أو في رقي الإنتاج المادي الذي يصل إليه، وإنما تكمن في مدى ما يمكن أن يصل إليه من سمو روحي وخلقي، وفي مدى انسجام أوضاعه وأحواله مع أهدافه وغاياته الكبرى، وفي مدى التوازن الذي يستطيع الاحتفاظ به على صعيد شخصيته وعلى صعيد علاقاته بمفردات الوجود.

قد بات من الواضح اليوم أن العالم الإسلامي يحقق إنجازات عمرانية متتالية، وتلك الإنجازات تنقله خطوة خطوة نحو فلك الحياة الغربية، أو قل ـ على نحو أدق ـ نحو المفاهيم الأساسية التي تحكم الحياة في الغرب. وهذا يشكل خطورة بالغة على

رؤيتنا للحياة، وعلى علاقتنا بمجمل الإنجازات الحضارية. إن الحضارة الحديثة تقدم ما تقدمه من مفاهيم للحياة العصرية من أفق علماني لا ديني، يرى في (الدنيا) المرحلة الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يحقق فيها ذاته، ويصل فيها إلى رغائبه وطموحاته.

ويمكن القول: إن هذه الوضعية تشكل قطيعة صارخة مع مفاهيم ما قبل عصر النهضة؛ فقد كان مفهوم وجود حياة أخرى يجب عمل شيء مـن أجلها واضحاً فـي الذهنية الغربية. وكانت النصرانية ـ على ما فيها من تشويه وتحريف ـ قادرة على توليد مثل ذلك المفهوم، لكن منذ بدايات عصر النهضة بدأ الأمر يختلف حيث أخذت المفاهيم الأساسية التي تشكل الحياة المعنوية في الغرب بالتبدل على نحو شبه كلي، فقد كانت أوروبا تستمد من النصرانية روح (الشهيد) الذي يضحي في سبيل غيره، وفي سبيل نيل حياة أخروية أفضل من حياته الدنيوية، ثم حدث تحول رمزي مخيف حيث صارت أوروبا تستوحي من التراث الإغريقي روح (البطل): البطل مستكشفاً، والبطل فناناً، ومكافحاً وغازياً ونهاباً ومفسداً وجامعاً للثروة... وصار من غير الممكن لأي إنسان أن يحقق نجاحاً يُذكر له من غير قدر معترف به من البطولة والتفوق الظاهر.

التحول من استيحاء روح الشهيد إلى استيحاء روح البطل، هو التحول الذي بات يظلل حياة كثير من المسلمين اليوم، ولكن نظراً لأننا نعاني من الكثير من القصور، والكثير من الفوضى في

مختلف جوانب حياتنا، فإن كثيراً من الناس اليوم صاروا بالمقاييس الغربية أبطالاً، حيث حققوا النجومية الاجتماعية، وجمعوا الثروات، وصاروا ـ كما يقال ـ يشكلون رقماً صعباً يُحسب حسابه؛ لكن بطولتهم تتحقق خارج القانون، وخارج الرؤية الإسلامية للحياة، وخارج التوازن المطلوب، أي عن طريق تضييع الواجبات والحقوق وسلوك طرق اللصوصية والرشوة والغش والتحايل والخداع والكذب. . .

كلما تقدم العمران وتعقدت المصالح، وكثرت الحاجات التي يُنظر إليها على أنها أساسية، شعر الناس بأنهم يغوصون أكثر فأكثر نحو قاع (الدنيوية) حيث يصبح العالم الذي يعيشون فيه ـ بما فيه من متطلبات وتحديات ومرفهات ـ مطبوعاً بطابع حسي مادي مصلحي. وبذلك تتضاءل شيئاً فشيئاً مشاعرهم وهمومهم الدينية، حيث يتم إعطاء دور أكبر للتمتع وتلبية الرغبات الحسية، وحيث تتم إدارة الحياة بعيداً عن التضامن الأخوي عن طريق مؤسسات كثيراً ما تفتقر إلى الشفافية والرحمة والشفقة على الضعفاء والمحرومين.

أضف إلى ذلك أن اتساع دور (العقل) في الحياة يولّد لدى الناس انطباعات كاذبة بالسيطرة على الحياة، مما يقلل من دور العقيدة في تغذية مشاعر العبودية والافتقار لله ـ تعالى ـ ورجاء ما عنده مما هو في مكنون الغيب. هذه سنة الله في الخلق، سواء

أكانوا مسلمين أو غير مسلمين. والنجاة من هذه الوضعية تحتاج إلى تركيز ومجاهدة وعمل مستمر؛ وقليل من الناس من يفعل ذلك!

هذا كله يدعونا إلى القول: إننا معاشر الدعاة والمربين والإعلاميين قد نوقع الجيل الجديد في مغامرة خطيرة وغير محسوبة، حين ننمي فيه روح الفردية والاستقلال الشخصي، وحين نحثه دون هوادة على تحقيق أكبر النجاحات وإقامة أوسع العلاقات بواسطة سلوك أقرب السبل. تلك المغامرة الخطيرة تتمثل على المستوى النفسي في دفع الناشئة إلى رسم أهداف كبيرة، لا تساعدهم الإمكانات والوسائل المتاحة على بلوغها، مما يؤدي إلى أن يتحللوا من الضوابط الأخلاقية التي يجب على كل مسلم أن يقيد سلوكه بها. وتتمثل تلك المغامرة على المستوى الاجتماعي في نشر نوع من الأنانية المقيتة ونوع من التصدع الاجتماعي والأسري؛ لأن النجاح الواسع قد لا يتحقق إلا من خلال السحب من رصيد المصلحة العامة وحقوق الأهل والأرحام. وهذا ما حصل فعلاً لدى أمم كثيرة، وهذا ما بدأت بوادره لدى شباب اليوم بالظهور!

ليس أمامنا لمواجهة هذه الوضعية الآخذة في الانتشار سوى تقوية الوازع الداخلي، وتعزيز النظام الأخلاقي، وإعطاء تنمية حب الخير للناس، والالتزام بأوامر الشرع والوقوف عند نواهيه أولوية مطلقة.

إن القيم الإسلامية تحتاج إلى نوع من الاكتشاف الجديد من خلال وضعها في سياقات فكرية وتربوية وإصلاحية جديدة، ومن خلال إرساء تقاليد ثقافية، تعطي للاستقامة السلوكية أبعاداً جديدة.

إننا إذا حفَّزنا الأجيال الجديدة على النجاح والتفرد من غير تدعيم شامل للجانب الروحي والأخلاقي نكون كمن جاء إلى هيكل، فوضع له محرك طائرة وكوابح دراجة! ولست أبالغ إذا قلت: إن أمة الإسلام في أمسِّ الحاجة إلى ثورة روحية وأخلاقية جديدة حتى تستطيع النجاة من فخاخ الحضارة الحديثة، وحتى تستطيع المحافظة على خط سيرها الصحيح.



(٢١)
أفكار يجب أن تتغير

يحيا كل إنسان في بيئة مشحونة بالأفكار والعقائد والتقاليد والرموز والمعلومات، ومن مجموع تلك الأمور تتكون ثقافته العامة. ومن تلك الثقافة تتولد رؤيته لأمور كثيرة، كما تتشكل لديه الصور الذهنية التي يرى من خلالها نفسه والعالم من حوله. وإن كل صورة ذهنية تبدأ بالتشكل نتيجة الخواطر التي يتكرر ورودها على الواحد منا، وكثيراً ما تأتي الأحداث اليومية لتؤكد صحة تلك الخواطر. ومن هنا فإن الواحد منا مطالب بأن يعي الصور الذهنية الخاطئة حتى يتمكن من مجابهة الخواطر التي تؤدي إلى تشكيل تلك الصور وقطع الطريق عليها.

يؤكد الكثير من البحوث التي أجريت في علم النفس المعرفي على أن تغيير الأفكار هو المدخل الصحيح لتغيير الاستجابات الشعورية والسلوكية لدى الإنسان. والحقيقة أن الصور الذهنية التي تحتاج إلى التغيير، أو نحتاج إلى التخلص منها على نحو نهائي كثيرة جداً؛ لكن أكثرها حيوية وتأثيراً في مسار حياتنا الشخصية هي تلك الصور التي كوّناها عن أنفسنا وذواتنا؛ إذ إنها تؤثر على نحو جوهري في أسلوب رؤيتنا للحياة وفي نوعية مبادراتنا ونوعية ردود أفعالنا.

ولعلي أشير هنا إلى بعض تلك الصور والمفاهيم في الآتي:

١- كثيرون أولئك الذين تسيطر عليهم مشاعر الإحباط، ومشاعر عدم الأهلية للقيام بالأعمال التي يقوم بها نظراؤهم من الناس؛ ولذا فإنهم بالتالي يشعرون أنهم لا يستحقون النجاح والتفوق. وينعكس هذا الشعور بالضآلة على نفسياتهم وسلوكاتهم، حيث إنك تجد الواحد منهم فاقداً للحيوية، فهو يؤدي أعماله بتثاقل وتباطؤ ومن غير أي حماس أو اندفاع، وإذا بدأ بإنجاز عمل أو مشروع فإنه قلَّما ينهيه، وإذا أنهاه لم ينجزه على الوجه المطلوب. وحين يفكر الواحد منهم، فإن تفكيره يفقد المسحة الإبداعية، ويتسم بالرتابة والتكرار؛ إذ لا حافز يدعو إلى التجديد. وهذا الصنف من الناس كثيراً ما يحدثك عن العقبات التي تعترض سبيله، وكثيراً ما يزعم أنها عقبات طارئة وغير متوقعة.

وأخيراً فإن الذين يفقدون الشعور بالأهلية للقيام بالأعمال الجيدة يحملون في نفوسهم الكثير من مشاعر اللوم للآخرين والعتب عليهم؛ لأنهم في توهمهم يخذلونهم ويحجبون عنهم العون الذي كان ينبغي أن يقدموه إليهم؛ وهذا يؤدي إلى عزلتهم، وابتعاد الناس عنهم مما يضاعف في مشكلاتهم، ويشعرهم بالاغتراب.

أنا لا أشك أن مواهب الناس وإمكاناتهم وظروفهم متفاوتة، لكن أعتقد مع هذا أن هناك دائماً أكثر من طريقة ووسيلة لإدخال

تحسينات على كل ذلك، لكن السلبية التي ورثها الكثيرون منا من بيئاتهم تمنعهم من رؤية الآفاق الممتدة التي أمامهم. وأظن أن تخفيض الطموحات سوف يقرب المسافة بين الأهداف وبين الإمكانات المتوفرة، مما يحفز الإنسان على العمل والدأب، كما أن توضيح ما يريده الإنسان على نحو جيد يساعد هو الآخر على إزالة الأوهام التي تعشش في أذهان الناس، وتصبح مصدراً لتوليد الإحساس بصعوبات غير موجودة. ومن المؤسف في هذا السياق أن معظمنا يفكرون غالباً في الأشياء التي لا يريدونها، مما يجعلهم يشعرون بالمشكلات أكثر من شعورهم بالنتائج الجيدة.

أخيراً فإن العزيمة على إنجاز أشياء محددة في زمان محدد، تجعل المرء يضع قدمه على بداية طريق النجاح، وبمجرد أن يشعر بأنه بدأ يتقدم تتولد لديه طاقات جديدة، تساعده على المضي نحو الأمام باطمئنان وثبات.

٢- بعض الناس يحملون صوراً ذهنية مبالغاً فيها حول الكفاءة الشخصية والإنجاز العالي، ويعتقدون أن الإنسان إذا لم يحقق نجاحات كبرى، فإنه لن تكون له قيمة بين الناس. وهذا غير صحيح، فالمرء لا يحترم لإنجازاته فحسب؛ بل إن هناك الكثير من السمات التي ترفع من قدر الواحد منا في عيون إخوانه أكثر مما يرفع النجاح، وذلك مثل الطيبة والتعفف وحب الخير للناس وبذل المعروف والاستقامة على أمر الله ـ تعالى ـ وما شابه ذلك.

٣- يغلب على كثير من الناس مفهوم يقضي بأن تسير الأمور على ما يشتهون ويرغبون، وإذا لم يحدث ذلك فإن الحياة تصبح شيئاً لا يطاق. وهذا وهم كبير، فنحن لا نملك زمام الأحداث، ولسنا نحن الذين نحرك الأشياء، ولذا فإن علينا أن نتوقع دائماً أن يحدث ما ليس في الحسبان.

ومن وجه آخر فمن الذي يزعم أن عدم حدوث ما نرغب فيه يشكل كارثة أو انتكاسة؟ إن الله ـ جل وعلا ـ وحده هو الذي يعلم خواتيم الأمور وعواقب الأحداث والأوضاع، ولذا فإننا طالما خشينا من وقوع الكثير من الأحداث، لكن بعد أن تقع نلمس فيها من لطف الله ـ تعالى ـ ورحمته وخيره، ونرتاح لذلك ونسرّ به، وإذا تأملت حياة الناس وجدت أعداداً لا تحصى منهم استاؤوا ـ مثلاً ـ عند فصلهم من وظائفهم، وعدُّوا ذلك مصيبة كبرى، لكن بعد أن انطلقوا في الأعمال الحرة عدوا وقت فصلهم بداية رائعة لمرحلة مثمرة وعظيمة.

يقول الله ـ جل وعلا ـ معلماً لنا هذه الحقيقة الناصعة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[1]. ثم إن الله ـ تعالى ـ أعطانا قدرة هائلة على التكيف مع الأمور الصعبة، وحين يقع ما لا نحبه أو نتوقعه، فإننا إذا استطعنا امتصاص الصدمة الأولى،

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

سنجد أنفسنا متوافقين مع الأشياء الجديدة، وسنجد إذا استخدمنا البصيرة أنها لا تخلو من إيجابيات وحسنات.

٤- الحضارة الحديثة مكّنت الإنسان من السيطرة على الكثير الكثير من مظاهر الطبيعة، ورسخت في عقله ومشاعره أن هناك دائماً العديد من الخيارات، كما أن من حقه أن يتطلع إلى ما هو أكثر وأمتع وأرفه وأجود. . . وهذا كله جعلنا كلما واجهنا مشكلة طلبنا لها حلاًّ مثالياً كاملاً، وإذا لم نجد ذلك الحل، فإننا نشعر بالكثير من الأسى والفجيعة!

لا ريب أن التطلع إلى ما هو أحسن وأكثر، شيء ليس خاطئاً من حيث المبدأ؛ لكن يجب علينا أن ندرك أن ذلك لا يخلو في كثير من الأحيان من المثالية والمبالغة، ولذا فإن الإصرار على الحصول على الأفضل دائماً يجب أن يصحب بالاعتقاد أن لله ـ تعالى ـ الكلمة العليا والنهائية في هذا الوجود، وأنه لن يحدث إلا ما أراده وقدَّره، وهذا الذي أراده قد يوافق رغباتنا، وقد لا يوافقها، ثم إن الوصول إلى أي حل عاجل أو آجل لمشكلة صغيرة أو كبيرة، لا يمكن إلا أن يظل خاضعاً للبيئة والمعطيات السائدة، وبما أن شروط حياتنا الشخصية وشروط الحياة العامة تظل دائماً دون طموحاتنا وتطلعاتنا، فإننا سنظل نشعر أن الوسط الذي نعيش فيه هو أقل مما نريد، وأقل مما ينبغي أن يكون؛ وهذا يعني أننا لن نصل أبداً إلى حلول كاملة ومثالية؛ لأن الحل

الكامل يتطلب وسطاً كاملاً. ولذا فإن علينا دائماً أن نتوقع حلولاً منقوصة ونتائج محدودة. والناس الذين لا يعرفون هذا المعنى سيظلون يشعرون بالخيبة والسخط!

٥- لو تساءلنا لماذا يعيش أشخاص في مركز الضوء وفي لُجَّة الأحداث، على حين يظل آخرون على هامش الحياة أخذاً وعطاءً وتأثراً وتأثيراً، لوجدنا أن لذلك العديد من الأسباب، لكن قد يكون من أهمها أن كثيرين منا يختارون تجنب المشكلات والتحديات، والابتعاد عن دائرة الضوء قدر الإمكان، ولهم في ذلك فلسفتهم الخاصة، وأعتقد أن هذا المفهوم يحتاج إلى تغيير، حيث إن مواجهة الصعوبات والقيام بالمهمات والمسؤوليات، كثيراً ما يكون السبيل الوحيد لتنمية الشخصية وبلورة الإمكانات والقدرات، وفتح مجالات جديدة للعطاء والنفع العام. تصور معي ماذا كان يحدث لو أن رجلاً مثل أبي بكر أو عمر ـ رضي الله عنهما ـ رفض إمرة المؤمنين، ولو أن رجلاً مثل خالد بن الوليد رفض قيادة جيوش المسلمين، ولو أن رجلاً مثل الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة اشتغل بالزراعة، ولم يدخل المجال العلمي...؟؟

إن المتوقع آنذاك أن يكون كل واحد من هؤلاء العظماء في وضعية أقل أهمية وأقل ملاءمة للعطاء الكبير الذي قدموه. إن التاريخ يُصنع من وراء التصدي للمهمات الجليلة ومن وراء

التغييرات الكبيرة التي نُدخلها على حياتنا الشخصية من أجل الاضطلاع بالأعمال العظيمة. لا ريب أن البعد عن تحمُّل المسؤوليات والإعراض عما يسبب الصعوبات، يجلب لنا الكثير من الراحة والهدوء، ويجعلنا أقل احتياجاً لاستنفار الإمكانات وتحرير الطاقات، كما أنه لا يتطلب منا كثيراً من التعديل في برامجنا الخاصة؛ لكن علينا أن نتذكر أن البعد عن مركز النشاط الحضاري والرضا بالعيش الهادىء الهانيء، كثيراً ما يتسبب في الضمور والترهل، وفقدان البيئة التي تمكِّن الإنسان من النمو والعطاء. وعلينا ألا ننسى أيضاً أن تواري الصالحين والأكفاء عن محاور الحركة في الحياة، يتيح للآخرين التقدم إليها وملء الفراغ الذي تركه الأخيار بالأمور السيئة والضارة.

٦- لو سألنا الناس الذين لم يحققوا إنجازات جيدة عن الأسباب التي حالت دون ذلك، لوجدنا أن السواد الأعظم منهم يُحيل ذلك إلى عوامل وأسباب خارجية لا يستطيع الإنسان السيطرة عليها، وتلك الأسباب قد تكون مادية أو اجتماعية أو أسرية... وقليلون جداً أولئك الذين يقولون: إنهم لم يحققوا تقدماً أو تفوقاً على أقرانهم بسبب عدم امتلاكهم الاهتمام أو التنظيم الذاتي أو العادات الجيدة أو الآفاق الرحبة... وهذا يعود على ما يبدو إلى أن إدراك العوامل الحسية أسهل من إدراك العوامل المعنوية؛ ثم إن لدينا ميلاً غريزياً إلى جعل أسباب

قصورنا أو إخفاقنا، تتعلق بالآخرين، أو بأشياء خارجة عن سيطرتنا أو مسؤوليتنا. وهذه الفكرة تحتاج إلى تعديل، فنحن مع أننا لا نتجاهل تأثير العوامل البيئية والظرفية إلا أننا نعتقد أن المشكلة الأساسية تكْمُن في عقولنا ونفوسنا وسلوكاتنا، وحين يحدث تحسن جيد على هذه الأصعدة، فإن تأثير العوامل الخارجية يتضاءل، بل إن الظروف المعاكسة تتحول من معوقات للتقدم إلى محفزات ومحرضات عليه. وكثيرون أولئك الذين صنعت منهم الأوضاع الصعبة رجالاً عصاميين من الطراز الرفيع.

٧- نحن ـ على نحو ما ـ جزء من الماضي، وكثير مما نحمله من أفكار ومشاعر وعادات موروثة من أزمنة الطفولة والمراهقة والشباب. ونحن نتمسك بذلك الموروث لأننا نرى فيه استمرارية وجودنا ورسوخ ذواتنا. وهذا يجعلنا نعتقد أن الماضي بكل أحداثه ومؤثراته ومعطياته هو الذي يصوغ سلوكنا في الحاضر، وربما في المستقبل، والحقيقة أن معظم الناس يخضعون لتأثير أحداث الماضي وما أبقته في النفوس من مشاعر وصور وانطباعات، وربما تعاملوا معها على أنها نوع من الخبرة العزيزة التي يجب الاستفادة منها والسير على هديها.

ويمكن القول: إنه كلما امتدت المساحات التي أفلتت من قبضة الوعي، فصار التعامل معها عن طريق (اللاشعور)، وجدنا أنفسنا في أَسْر المشاعر والأفكار القديمة. المشكلة تتمثل في أن

تلك المشاعر والانطباعات كثيراً ما تكون غير صحيحة، أو غير ناضجة، أو تكون قد تكونت في ظروف مغايرة كثيراً لما نحن فيه اليوم. وتؤدي الأمثال والمقولات الشعبية المأثورة عن السابقين دوراً سيئاً في هذا المقام؛ لأن كثيراً منها كان عبارة عن إطلاقات بَدَهية لا تستند إلى خبرة عريقة، ولم تتعرض لأي دراسة أو تمحيص جيد.

إن انطباعي عن زيد من الناس بأنه مهمل أو حقود أو كذاب أو سريع الغضب، قد يكون تولد من موقف واحد معه أو نتيجة إخبار بعض الناس لي، ويكون ذلك الموقف استثنائياً، لا يمثل وضعيته العامة، أو يكون الذي أخبرني غير صادق أو غير دقيق فيما يقول. وقد يكون الرجل أقلع عما كان عليه، وحسن حاله، وحينئذ فإن انطباعاتي وأحاسيسي عنه قد تكون متخلفة وظالمة!

بعض الأفكار الموروثة نشأ بسبب وجود الأمية، أو بسبب أسلوب متصلب في التربية، أو بسبب عرف اجتماعي غير صحيح؛ وعلى سبيل المثال فإن قول العامة: «أكبر منك بشهر أعرف منك بدهر»، نشأ نتيجة انتشار الأمية، حيث يكون لكبر السن أثر كبير في حصيلة الإنسان العلمية. أما اليوم فإن العلم الغزير ليس مرتبطاً بالأعمار على نحو مطرد... إلخ.

نحن في حاجة ماسة إلى غربلة ما ورثناه من مفاهيم ومقولات ومشاعر وانطباعات عن طريق النقد الدقيق والتأمل

العميق والتحاكم إلى الخبرات الجديدة. وأعتقد أننا إذا فعلنا ذلك فإننا سنكتشف زيف الكثير من ذلك، كما أننا سنكتشف أن خضوعنا له قد غمرنا بالكثير من الأوهام!

إن جوهر التقدم العقلي يرتكز إلى حدٍّ بعيد على مدى قدرتنا على امتحان الأفكار والمفاهيم والمشاعر الموروثة، والتأكد من الوضعية المناسبة لها في منظوماتنا الثقافية والقيمية الجديدة.

(٢٢)

النفوس الكبيرة

بين أفكارنا ومشاعرنا صلات قوية ومعقدة، وما هو مستتر منها ما زال أكثر مما هو ظاهر ومحدد. إن الأفكار التي نحملها عن الحياة والأحياء والأشياء تولّد المشاعر التي تنسجم معها، فحين تحدث قناعة عند شخصٍ ما بأن صديقه الفلاني يغشه، ويكذب عليه، ويحيك له المكائد، فإن مشاعره نحوه تأخذ بالفتور والتغير إلى أن تنقلب مشاعر كراهية وعداء. ويحدث العكس من هذا حين يعلم الواحد منا بأن فلاناً الذي يكِنُّ له البغض والعداء دافع عنه في مجلس من المجالس، وأثنى عليه، أو سدد عنه ديناً كان صاحبه يطلبه بشدة وإلحاح.

ومن وجه آخر فإن المشاعر الراسخة تدفع العقل في اتجاه إنتاج الأفكار التي تدعم تلك المشاعر، وتضفي عليها المشروعية والمنطقية. وهكذا فحبنا لشيء من الأشياء يوجِّه عقولنا على نحو خفيٍّ إلى اكتشاف الميزات التي يتمتع بها ذلك الشيء، وطمس العيوب والنقائص التي يمكن أن تكون فيه. ويحدث العكس في حالة البغض والكراهية. وهذا أمر مسلَّم به.

هذا كله يعني أن أصحاب النفوس الكبيرة يملكون قدراً ما من عظمة العقل واستقامة الفكر، كما أنه يؤمل من أصحاب النضج

العقلي أن يهتدوا إلى المواقف الشعورية والاستجابات السلوكية الراشدة والصحيحة؛ بل يمكن أن يقال ـ كما هو في الرؤية الإسلامية ـ: إن ما نملكه من مشاعر وسلوكات يعد بمثابة معايير لصفاء الأفكار. ونظراً لهذا الارتباط الحميم فإنك لا تستطيع أن تتحدث عن نفس فلان وما فيها من ميزات وعيوب بعيداً عن الحديث عن نوعية الأفكار والرؤى التي يؤمن بها.

وانطلاقاً من هذا يمكن القول: إن النجاح في علاج أمراض النفوس، كثيراً ما يتوقف على النجاح في معالجة أخطاء الأفهام وانحراف التصورات. كلما تحسَّن وعي الناس بمتطلبات العيش بكفاءة وأمان واطمئنان تحسَّن وعيهم بالشروط والتفاصيل التي يجب توفرها في بناهم النفسية والشعورية. والحقيقة أن التقدم الذي تم إحرازه على هذا الصعيد يعد جيداً ومهمّاً؛ ولكن لا بد من القول: إن الإيمان بالله ـ تعالى ـ والالتزام الصحيح بأوامره ونواهيه يوفران الإطار التوجيهي لأفكارنا والتي توفر بدورها الإطار التوجيهي لمشاعرنا وأحاسيسنا.

ولدى المفكرين والعلماء من تخصصات شتى قناعات راسخة بأن مشكلة الإنسان مع ما حوله لا تتمثل في طبيعة الصعوبات والمشكلات والضغوط التي يواجهها على مقدار ما تتمثل في نوعية علاقتنا بها، وتلك العلاقة تتأسس على نظرتنا وتفسيرنا لها.

ونحن لا يخامرنا أدنى شك بأن الإنسان لا يملك كل مفردات المنظومة الفكرية والعقدية التي تجعله مطمئناً لصحة رؤيته وتفسيره للأحداث والمواقف المختلفة التي يتعرض إليها. ودين الإسلام وحده هو الذي يوفر لنا العقائد والأفكار والأحكام والأدبيات التي تشرح لنا نوعية علاقتنا بخالقنا ـ سبحانه ـ وبمصيرنا بعد الموت، والتي تصوغ رؤيتنا للحياة الدنيا وكل ما فيها من مسرات ومكدرات، كما تصوغ نوعية العلاقة التي يجب أن تسود بين بني البشر. ولا أريد أن أستفيض في هذا الشأن فهو واضح ومعروف؛ لكن أريد أن أشير إلى التوازن النفسي والشعوري الذي يوفره الإيمان من خلال تحديد نظرتنا للدنيا وعدها شيئاً مؤقتاً ومحدوداً وصغيراً إذا ما قارناها بالحياة الآخرة، حيث إن كل شيء هناك عظيم وممتد وأبدي.

إن هذه النظرة تجعل المسلم لا يعبأ بكل صعوبات الحياة ومصائبها، لأن له الأجر العظيم إذا صبر عليها، ولأنها في النهاية تظل صغيرة؛ لأنه ما دامت الدنيا صغيرة فإن كل ما فيها هو في النهاية صغير. وفي المقابل فإن المسلم لا تغرُّه الإمكانات الهائلة التي قد تصبح بين يديه؛ لأنه يعرف أنها مؤقتة، وأنه مسؤول عن استخدامها، ولذا فإنه يجد القدرة على التحرر من مشاعر الغرور والبطر والكبر والتسلط والانتقام. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا حيث يقول ـ سبحانه ـ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ

أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[1].

إن معرفة المسلم أن ما يصيبه من خير وشر مقدر ومكتوب وواقع بإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته يجعله يتماسك، وينصرف إلى الاهتمام بنوعية الموقف الذي يجب عليه أن يتخذه حيال ما هو فيه من سراء أو ضراء، على حد قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إن المؤمن يجعل مصيبته صبراً وغنيمته شكراً». إن المصائب مهما كانت، تظل قابلة لأن تواجَه برؤية إيمانية تهوّن من شأنها، وتخفف من وطأتها، بل قد تحولها إلى نوع من النعمى، على حد قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني؛ الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله ـ تعالى ـ يعطي الثواب العظيم والأجر الكبير عليها».

أما الآن فإنني سأستعرض بعض السمات التي إذا اتصف بها شخص من الأشخاص أمكننا أن نقول: إنه من أصحاب النفوس الكبيرة، وذلك من خلال المفردات التالية:

١- على مدار التاريخ كانت مشكلة (التوازن) النفسي والسلوكي مثار جدل واختلاف، كما كانت مثار ارتباك وحيرة

---

(١) سورة الحديد: ٢٢، ٢٣.

لدى السواد الأعظم من الناس، وما ذلك إلا لأن الشخص حين يريد أن يكون متوازناً يعمد إلى إيقاف الفضائل والإيجابيات عند حدود معينة؛ كيلا تنقلب في النهاية إلى رذائل وسلبيات. وبما أن تلك الحدود غير واضحة فإننا كثيراً ما نختلف في موقف ما: هل هو ممدوح أم مذموم؟

أصحاب النفوس الكبيرة يملكون البصيرة والخبرة التي يتمكنون من خلالها من إقامة التوازن المنشود في أنفسهم، والذي ينعكس بالتالي على سلوكاتهم ومواقفهم؛ ويملكون ما هو أهم من ذلك، وهو الإرادة الصلبة التي تمكنهم من إيقاف نزعاتهم ونزواتهم عند الحدود الطبيعية والمقبولة، بالإضافة إلى الإصرار على محاولة البقاء على الخط الذي يرون فيه مؤشرات توازنهم النفسي. ولعلي أوضح كل هذا من خلال المثالين التاليين:

أ- موقف الإنسان من ذاته يحتاج إلى نوع من التوازن، إذ يمكن أن ينظر أحدنا إلى مجموعة النقائص التي في ذاته ومجموعة الأخطاء الكبرى التي ارتكبها في حياته، فينتهي إلى احتقار نفسه وازدرائها وإصدار الأحكام القاسية عليها. كما أنه سيكون في إمكانه أن ينظر إلى خصائصه النفسية الجيدة وإلى مواقفه الحميدة فيصاب بنوع من الكبر والغرور. المطلوب هو أن يعرف الإنسان ما يمكن أن يكون لديه من نقاط ضعف وما لديه

من أمراض وعاهات نفسية، ويتعامل معها دون تضخيم ودون شعور بالإحباط واليأس من الخلاص منها.

ومن وجه آخر فإن على الإنسان أن يحترم ذاته، ويثق بها؛ لأن احترام المرء لذاته يدفعه نحو صونها عن الرذائل؛ والثقة بها تشجعه على الارتقاء بها وتدعيمها. قد يكون من المهم أن نتذكر أن في إمكاننا دائماً أن نرى أنفسنا على أنها ممتازة وسامية، وذلك إذا قارناها بالأشخاص السيئين، كما أن في إمكاننا أن نراها متدهورة ومنحطة وذلك إذا قارناها بالصفوة الممتازة من البشر. وقد يكون من الخير أن نخرج من دوامة المقارنات، وأن نعمل بجدٍّ على اكتساب الخصال والأخلاق الحميدة، لنشعر بالتقدم المستمر، ويتأكد لدينا أن غدنا خير من يومنا مهما يكن من أمر، فإن الحصول على هذا التوازن ليس بالأمر اليسير، إذ إن الغالب أن يكون تعاملنا مع أنفسنا من أفق (اللاشعور) وهذا ما يولد الاتجاهات المتطرفة في نظرة الناس إلى أنفسهم.

ب- كثيراً ما يجد الإنسان نفسه حائراً في الموقف النفسي الذي يجب أن يكون له حيال بعض المفاهيم والأدبيات التي تحمل فيما بينها درجة من التعارض والتصادم؛ ومن ذلك على سبيل المثال مفهوم النجاح والربح، ومفهوم الزهد والاستخفاف بشأن الدنيا، حيث إننا نجد من يستولي عليه حب تكديس الأرباح والفوز بالمزيد من المكاسب إلى درجة انشغاله بذلك عن

أهله وأولاده وعن أداء واجباته المختلفة. وهو من أجل ذلك يغير الكثير من عاداته، ويحرم نفسه من كثير من المسرات الروحية والأدبية، إنه في حالة من الاستغراق التام مع محبوبه الأثير. . . والوقوع في أي خسارة أو تراجع في أرباحه المتوقعة يشكل بالنسبة إليه كارثة حقيقية، يصعب احتمالها وتجاوزها!

ونجد في المقابل من تغلب عليه الاستهانة بأي خسائر يمكن أن يتعرض لها على صعيد أعماله ومشروعاته المختلفة، فهو يملك استعداداً عظيماً للانتقال من مشروع خاسر إلى آخر خائب، مهما ترتب على ذلك من ديون وتبعات ومشكلات!

التوازن المطلوب والذي نجده عند أصحاب النفوس الكبيرة، يقوم على حب النجاح وحب الخير والسعي إلى الحصول على المال الذي يغطي الحاجات، ويفيض منه شيء للصدقة والصلة والاستثمار الجديد، لكن ذلك يظل في إطار القيام بالواجبات الشخصية والاجتماعية المختلفة.

وفي إطار التوازن العام للشخصية وبعد بذل الجهد والأخذ بالأسباب، فإن صاحب النفس الكبيرة، لا يتحطم إذا وقع في خسارة كبيرة أو إخفاق ذريع في عمل من الأعمال المهمة، إنه يعلم أن مجرد بذل الجهد المطلوب يؤدي إلى إغناء الحياة وتحرير القوى الكامنة لدى المرء. والوقوع في خسارة لا يعني نهاية العالم، وإنما يعني ضرورة أَخْذ الحذر من الوقوع في

مغامرة جديدة غير محسوبة، كما يعني ضرورة الدراسة الجيدة لأي مشروع قادم.

إن أصحاب النفوس الكبيرة لا يرون في الربح شيئاً يملأ وجودهم فيغرقون أنفسهم في السعي إليه، كما أنهم لا يرون في الخسارة خسراناً للذات، فذواتهم أكبر من أن يستنفذها المال أو يقلل من شأنها احتياجهم إلى أثاث أو متاع؛ لأن وجودهم الدنيوي موصول بعالم الآخرة الرحيب، حيث تبدو كل الأشياء بالنسبة إلى ما فيه تافهة ومؤقتة.

٢- لا تكون النفس كبيرة إذا لم تكن (لوامة)، تلوم صاحبها على بعض ما يقول ويفعل، إنها نفس تسكن في ذات متفتحة على مفردات المنهج الذي تؤمن به، ومتفتحة على خبرات الحياة ودروس التاريخ. في داخل تلك الذات حوار دائم بين العقل والنفس، وذلك الحوار يتغذى على المفاهيم التي يؤمن بها الشخص: مفاهيم ما يجوز وما لا يجوز، وما يليق وما لا يليق، حيث المقارنة المستمرة بين المحاسن والمساوىء والميزات والعيوب، وحيث الاستفادة من الأخطاء والسعي المستمر إلى ما هو أحسن وأجمل وأكيس.

إن من أخطر ما نواجهه في حياتنا مشكلة (الاسترسال) والمضي إلى آخر الطريق دون امتلاك أي قدرة على المراجعة والنقد والتوقف أو التراجع إذا اقتضى الأمر. والله ـ جل وعلا ـ

شرع التوبة لتكون حاجزاً لنا عن الاستمرار في السير نحو الهاوية. وأصحاب النفوس الكبيرة يسألون أنفسهم باستمرار عن مدى سلامة الوضعية النفسية والسلوكية التي هم عليها، لأنهم يعتقدون أن التدحرج نحو القاع يظل خطراً كامناً في الطريق، كما يعتقدون أن آفاق التحسن في كل الأمور تظل ممتدة إلى آخر لحظات العمر.

النفوس الصغيرة تولد مرة واحدة، ثم تنمو نمواً عشوائياً تحت تأثير الظروف العمياء والحاجات والضرورات الخرساء، ولذا فإنها نفوس مشوهة ومثقلة بالقبائح والنقائص. وأصحابها سادرون غافلون، وهم غير قادرين على إصلاح ما يلمسونه في أنفسهم من عيوب؛ لأن إرادتهم مشلولة وعزائمهم خائرة.

أما النفوس الكبيرة فشأنها مختلف، إنها تنمو وتنضج وتكبر مستجيبة للنمو العقلي والخبرات المتراكمة؛ ومع الأيام يتضاءل ارتهانها للظروف والدوافع والحاجات، وتصبح في تبعية الروح والقرار الحكيم والتسامي نحو الفضيلة، إنها تكتسي حلة النفس المطمئنة الراضية، ومع أن اللوم لا يفارقها إلا أن نوعية ما تلوم صاحبها عليه ترتقي وتدق، حيث المحاسبةُ على أمور لا يرى فيها أكثر الناس شيئاً يستحق العتاب. يقول الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديث نفسي... وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه».

٣- من سمات النفوس الكبيرة أنها تختزن في داخلها طاقة جيدة على الحضور حيث يوجد صاحبها وحيث يكون. الحضور القوي والملائم لمتطلبات الزمان والمكان والمناسبة، يدل على يقظة القوى الروحية والعقلية والشعورية لدى صاحبه، وهو ما يحتاجه المسلم المعاصر أشد الاحتياج، حيث ارتفعت وتيرة التحديات، كما زادت فرص النمو والارتقاء، ولا يمكن مواجهة تلك والاستفادة من هذه إلا عن طريق امتلاك درجة عالية من الفاعلية الشاملة.

قد مضى الزمان الذي يستطيع فيه الإنسان تحقيق ذاته وإثبات وجوده مع قلة الاكتراث ومع الفوضى النفسية والشعورية، وأظلنا زمان مختلف كل الاختلاف. ولعلي أشرح ما أريده من قوة الحضور في النقاط التالية:

أ- اهتمام المرء بالأحداث الجارية، ومحاولة استخلاص العبرة منها، والاهتداء إلى سنة الله - تعالى - فيها، والاهتمام كذلك بالأفكار والطرق الجديدة التي تحسِّن نوعية الحياة.

ب- التركيز في العمل، بمعنى إعطاء العمل الذي ندب إليه الواحد منا نفسه الجهد المطلوب، حتى يتمكن من الوصول إلى إنجازات ونتائج جيدة. وهذا كثيراً ما يفرض على المرء أن يضحي بشيء من راحته ونومه وترفيهه، كما يقتضي العودة إلى التعلم والتدرب واكتساب مهارات جديدة ودخول بعض

الدورات. . . وعلينا أن نفعل هذا بحماسة وعن طيب خاطر حتى نستفيد منه الفائدة المرجوة.

ج- متابعة الشخص للأعمال والمشروعات التي أسسها، حيث تثبت التجربة أن كثيراً من أشكال الإخفاق يأتي من وراء الإهمال وضعف المتابعة. وكثيراً ما يتجسد الفرق بين الإداري الناجح والإداري غير الناجح في أن الأول منهما يملك القدرة على متابعة موظفيه والتأكد من إنجاز المهام المسندة إليهم.

د- الدقة في التعبير عما نريد والدقة في فهم مرادات الآخرين وفي تصوير المشكلات وفي التخطيط والبرمجة. . . إن زماننا هو زمان الأشياء الدقيقة، ولن نستطيع أن نعيش فيه على النحو المطلوب من غير أن نجعل من الدقة روحاً يسري في حياتنا الفكرية والشعورية والسلوكية.

هـ - الإصغاء الجيد من خلال التحفز الكامل وصرف الانتباه إلى كل كلمة يقولها من يتحدث أمامنا في أمور جادة. ولا يكفي أن نحاول فهم دلالات الألفاظ التي يستخدمها بل لابد من الوقوف على الدلالات الإضافية التي تشي بها خلفية المتحدث عمّا يتحدث فيه، وتلك التي يحاول المتحدث إيصالها إلينا من خلال حركة اليدين وتعبيرات الوجه.

والحقيقة أن حسن استماعنا لشخص لا يعبر عن احترامنا له فحسب، وإنما يعبر إلى جانب ذلك عن حبنا للمعرفة والاستفادة

مما لدى الآخرين إن الاستماع الجيد عبارة عن فاعلية سلبية لكنها مهمة، لأنه لا قيمة لكلام المتكلمين بدونها.

٤- من أكبر الفوارق بين الإنسان والحيوان أن الحيوان لا يعرف شيئاً اسمه (تأجيل الرغبات) حيث إن الخطوط الغريزية لديه تدفعه باستمرار نحو الإرضاء المباشر لكل رغبة تلحُّ عليه. أما الإنسان فإنه كما يملك القدرة على المغامرة والمخاطرة يملك القدرة على تأجيل الرغبات، ويملك القدرة على تأجيل بعض مشتهيات النفس ومقاومة إلحاحها إلى الوقت الملائم.

وهكذا كلما كانت النفوس كباراً استطاع أصحابها الفكاك من أسْر الرغبات والعمل على تلبيتها بالقدر وفي الوقت المناسبين. وبما أن كثيراً من الرغبات يتسم بالجموح والطلب لإرواء غير محدود، فإن صاحب النفس الكبيرة يلبي رغباته في إطار المشروع والمباح. وعلى العكس من هذا فإنه كلما غلبت الغرائز على إنسان وجد نفسه قريباً من الحيوان، يسارع إلى العبّ من الشهوات دون رادع من دين أو عقل أو مروءة ودون خوف من جزاء أو عاقبة.

ومن الواضح أن الحضارة الحديثة أضعفت إرادات الناس بما أحاطتهم به من المغريات والملهيات، وبما زينته لهم من المتع والملذات. وبات على المسلم أن يزيد في تصليب إرادته وأن يحسِّن في مستوى مقاومته لنزوات النفس وإلا جرفه التيار

وغمرته أمواجه العاتية!

إن من المهم جداً أن ندرك أنه من غير تأجيل الرغبات لن نستطيع أداء واجباتنا الشرعية، كما أننا لن نستطيع أداء أعمالنا على الوجه المنتج والمثمر. ولو أن الواحد منا حَسَب استجاباته للأمور التافهة التي تصرفه عن الاستمرار في عمله كل يوم لوجد أنها قد لا تقل عن عشر، وقد تصل إلى ثلاثين! أعمار وأوقات طويلة تهدر وتضيع من غير أن ندرك حجم الخسائر الفادحة التي نتكبدها!

٥- التوثب والانفتاح والإقدام سمات مهمة من سمات النفوس الكبيرة، إنهم يتمتعون بقدرات واضحة على تجاوز الأمراض والمفاهيم التي تنبت في البيئات المتخلفة، وتلك الأمراض كثيراً ما تحوِّل من يصاب بها إلى إنسان مشلول نفسيّاً، حيث يبدو كأنه مغزو في داخله ومسكون بالكثير من الخوف والقلق.

أصحاب النفوس الكبيرة يعبرون عن ذواتهم بوضوح على حين يُشعرك الآخرون بأنهم أنانيون نرجسيون، يعشقون ذواتهم إلى حد الهوس. حين تلتقي بواحد من أصحاب النفوس الكبيرة فإنك تلمس الاستقلالية في الأحكام، كما تلمس الحرية والموهبة في مواجهة المشكلات، والتماسك والتطلع نحو الأحسن، كما تلمس الامتلاء الداخلي.

أما أصحاب النفوس الصغيرة فإنك تلمس منهم في مقابل هذه الصفات التبعية والسلبية والانتظار والهروب من المشكلات والقوقعة والخوف والقلق والانطواء على الذات والفراغ الداخلي. وهذه الوضعيات والحالات النفسية تنشأ نتيجة التربية الخاطئة والظروف السيئة والصعبة والموروثات الثقافية البالية.

وبما أن كل ما ذكرناه من سمات حسنة وخلال سيئة هو شيء نسبي، فإن لنا أن نعتقد أن كل أوضاعنا النفسية قابلة للمعالجة والاتجاه بها نحو الأفضل والأحسن إذا أدركنا حجم المسؤولية والأمانة التي يتحملها كل واحد منا.

(٢٣)
تعميق المفاهيم

الإنسان العميق هو إنسان يتجاوز الإدراك السطحي للأمور، ويحاول اختراق طبقات الحقيقة، الواحدة تلو الأخرى إلى أن يشعر بالتشبع الفكري والمعرفي، حيث تتوفر لديه المفاهيم والأفكار التي يستمد منها الاطمئنان إلى صحة منهجه وسلامة سلوكه.

أما الإنسان السطحي فإنه يقف عند العناوين ورؤوس الأقلام، ويرضى من كل شيء بأقله. وهذا الكلام ينطبق على الأمم والشعوب كما ينطبق على الأفراد سواء بسواء.

والحقيقة أنه من غير الممكن اليوم بناء عقلية مستوعبة لمعطيات العصر من غير الاشتغال الحثيث على صعيد المفاهيم المختلفة التي نتحرك على أساسها وبوحي منها. والواضح أن لدينا مفاهيم كثيرة تحتاج إلى نقد ومراجعة وتصحيح، كما أن لدينا مفاهيم سطحية تحتاج إلى تعميق وإثراء. وإن في إمكانك أن تنظر إلى المفاهيم التي يمتلكها الإنسان على أنها ـ على مستوى من المستويات ـ عبارة عن أدوات في يد العقل، وتلك الأدوات تؤدي دورها في تمكين العقل من القيام بعمله على مقدار ما تتمتع به من دخول في التفاصيل ومن تجاوز للإطلاقات

العامة وغير المسؤولة التي أدمن عليها معظم العامة وبعض الخاصة.

ولسنا نبالغ حين نقول: إن كل أبنيتنا الحضارية ستظل مرتبطة بنوعية المفاهيم التي تسيطر علينا والتي سنرى من خلالها الوجود. وإذا تأملت في أحوال الأمم النامية وجدت أنها تعاني من الكثير من الأزمات على مختلف الصعد، وستجد أن معظم تلك الأزمات ما هو إلا صدى للتشوهات الفكرية والمفاهيمية التي أصابت بناها العقلية. ومن هنا فإن إصلاح الكثير من واقعنا يتوقف على مدى نجاحنا في تطوير صورنا الذهنية عمّا هو كائن وما ينبغي أن يكون. وسأضرب هنا بعض الأمثلة التي يمكن أن توضح ما أريد قوله:

١ - التربية:

يشترك كل من الإنسان والحيوان في العديد من الأمور، منها العناية بالصغار، ومع أن قدراً مشتركاً من الفطرة يدفع بكل منهما لحماية صغاره وتغذيتهم، إلا أن الحيوان يقوم بما يقوم به انقياداً لخطوط الغريزة التي وضعها البارىء - جل وعلا - فيه. أما الإنسان فإن أكثر ما يقوم به من عمل تربوي يكون بدافع العقل والمعرفة، وهذا يعني أمرين:

الأول: أن تربية الحيوان لصغاره تظل محدودة بحدود غرائزه، فهو لا يستطيع أن يربي صغاراً يتفوقون عليه في أي شيء.

الثاني: هو أن الإنسان ـ بسبب اعتماده على المعارف المكتسبة في تنشئة صغاره ـ يستطيع أن يربي أبناءه بطريقة أفضل بكثير من الطريقة التي رباه بها أبواه. كما أنه إذا أهمل وقصَّر وضيّع ينحط مستوى صغاره في بعض جوانب شخصياتهم إلى مستوى الحيوان أو أدنى أحياناً. وعلى سبيل المثال فإن كل حيوان قادر على تدريب صغاره على كسب الرزق، لكن على الإنسان أن يبذل الكثير من الجهد حتى يتمكن من ذلك، وفي بعض الأحيان قد لا يستطيع بسبب ارتقاء نوعية الأهلية المطلوبة لشغل بعض المهن.

نستطيع من خلال كل ما سبق أن نقول: إن من معايير التربية الجيدة ما يمكن أن تحققه من اتساع للمفارقة بين قدرات الإنسان وقدرات الحيوان. لو تأملت في حياة البدائيين وحياة أولئك الذين يعيشون بعيداً عن الاستجابة لإيقاع العصر ـ كما هو الشأن في بعض مناطق أفريقيا ـ لوجدت أن تربيتهم لا تستهدف أكثر من تهيئة الصغير للعيش في نطاق الضرورة، أي تعليمه ما يحمي به نفسه، وما يساعده على كسب قوته الضروري. أما في المجتمعات التي تعيش في مركز الحضارة، فإن الأمر يختلف اختلافاً جذرياً حيث يتم توفير الوسائل التي تساعد الصغير على التفتح الذهني المبكر، كما يتم تعويده العادات التي يمكن أن تجعل منه إنساناً حساساً وناجحاً.

وهكذا فإن عمق مفهوم التربية يعد مؤشراً حقيقياً على مدى التقدم الحضاري الذي تحرزه أمة من الأمم. وذلك العمق يعني دائماً الاهتمام بالتفاصيل والمؤشرات الصغيرة. إن الغربيين قد كتبوا مئات الكتب والرسائل ـ مثلاً ـ حول الأسلوب الأمثل لتثقيف الطفل وتعويده القراءة ابتداء من السنة الثانية من عمره؛ وترى الأم هناك تقوم بتربية أطفالها وقد قرأت العديد من الكتب التي تعلمها كيف تهتم بهم، وكيف تنشئهم وفق أحدث المعطيات التربوية.

أما في العالم النامي حيث يميل مفهوم التربية إلى السطحية؛ فإنك تجد أن معظم الآباء والأمهات لم يقرؤوا أي كتاب تربوي، كما تجد أن الأدبيات والأساليب التربوية التي يستخدمونها متوارثة منذ قرون، وهي مملوءة بالأوهام والمقولات التي لا تستند إلى أي أساس علمي. والنتيجة لكل ذلك إخراج جيل يشعر بالغربة عن زمانه؛ لأنه ليس مؤهلاً لفهمه ولا للعمل في ظروفه المعقدة، كما أنه غير محصَّن التحصين الكافي لمواجهة مغرياته ومفاسده الضخمة والمتزايدة!

التقدم يعقِّد كل ظروف الحياة، وهذا يعني آلياً أن نطلب دائماً من التربية أن تعطي أكثر وأكثر، وذلك لا يكون إلا من خلال امتلاك المربين المزيد من الحساسيات في مهامهم الشاقة.

٢- الالتزام:

إن من نطق بالشهادتين معتقداً بهما مع خلو حياته مما ينقضهما دخل في حظيرة الإسلام، ولو قصّر في كثير من

الأعمال، وارتكب كثيراً من المخالفات، ويكون مفهوم التدين لدى من يفعل ذلك ضيّقاً وسطحياً، أو أنه يشعر بالعجز عن مطابقة سلوكه لمعتقداته وقناعاته. والحقيقة أن تقدم أمة الإسلام ظل على مدار التاريخ مرتبطاً بعمق فهم أبنائها للالتزام الحق والتدين الصحيح.

إذا تأملنا في فترات الانحطاط وجدنا عقول الناس مملوءة بالأوهام والخرافات والعقائد الفاسدة، بالإضافة إلى التقصير في أداء الواجبات والانغماس في المآثم والانحرافات، إلى جانب الجهل بمنهجية الإسلام في النهضة والتقدم. في الثلاثين سنة الماضية أكرم الله ـ تعالى ـ الأمة بما اصطلح عليه بـ (الصحوة الإسلامية). ومن أبرز معالم هذه الصحوة تفتح الوعي الإسلامي على حقيقة التدين، وعلى كل ما يجرح صفاءه ونقاءه، حيث يسود شعور عام بضرورة الاحتكام إلى شرع الله ـ تعالى ـ في الصغيرة والكبيرة وفي المنشط والمكره؛ وإن كانت الاستجابة السلوكية لذلك تختلف بين مسلم وآخر.

تعميق معنى الالتزام يعني أن نحاول نشر الأدبيات والأفكار التي تشرح للفرد المسلم كيف يستطيع جعل ثقافته (بالمصطلح الأنثروبولوجي) تصطبغ بالصبغة الربانية على مستوى السلوك الشخصي وعلى مستوى السلوك الاجتماعي. وعلى مقدار نجاحنا في هذا الأمر يحق لنا أن نتحدث عن تقدم الحياة العامة

في ديار الإسلام. وليس هذا بالأمر اليسير؛ حيث إن لدى الناس اندفاعاً غريزياً خفياً نحو العكس، أي جعل التدين جزءاً من ثقافتهم العامة، مما يفقد معاني العبودية لله ـ تعالى ـ ما ينبغي أن تحظى به من الهيمنة على الحياة الشخصية لكل واحد منا، ولكن علينا أن نبذل الجهد بقطع النظر عن النتائج المتوقعة.

٣- العمل الجماعي:

تغرس تعاليم الإسلام في نفس المسلم ـ على نحو عام ـ حب العمل والتعاون مع الآخرين، كما أنها تحث المسلمين على تكوين آراء متطابقة أو متقاربة في القضايا الكبرى والحاسمة، كما هو معروف في الكثير من النصوص؛ لكن الوقائع العملية تشير إلى أن فهم الناس للعمل الجماعي يشوبه الكثير من القصور والتشويه، وذلك يعود ـ على ما يبدو ـ إلى قصور التربية المنزلية والمدرسية، وتركيزهما على النجاح الفردي عوضاً عن النجاح الجماعي. وقد يعود ذلك إلى قصور نظم التشغيل في المصانع والمهن والوظائف المختلفة؛ مع أن الشعارات التي يرفعها الناس في حياتهم العامة والأدبيات التي لا يسأمون من تردادها تدعو إلى الانخراط في الأعمال الجماعية وإلى امتلاك روح الفريق، إلا أن الأنشطة الجماعية لدينا تشكو من الكثير من المشكلات والعاهات، ولعل أهمها الآتي:

أ- لدى الكثير منا نزوع إلى السيطرة، فهم ما أن يدخلوا مع غيرهم في لجنة أو مهمة أو نشاط حتى تراودهم طموحات

الهيمنة على المجموعة والتفرد باتخاذ القرار فيها. وهذا يولّد نوعاً من الاستياء العام داخل المجموعة، كما يولّد نوعاً من العناد والنزاع الذي يؤدي إلى خفض مستوى الإنتاجية للمجموعة كلها!

ب- يسود في كثير من الأعمال الجماعية نوع من (الشللية) والذين يتجمعون في شلة يتمحورون في الغالب حول رؤى جزئية أو مصالح ضيقة خاصة، وغالباً ما ينشغل المنتمون إلى (شلة) عن واجباتهم في العمل بالتآمر على فلان وعلّان ممن ينتمي إلى شلة مغايرة، ثم تتطور الأمور شيئاً فشيئاً حتى تضحي تلك الجيوب الصغيرة عبارة عن نويّات لانقسام الجماعة الكبيرة إلى مجموعات صغيرة متناحرة. وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على غموض مبادىء الجماعة أو ضعف جاذبيتها، كما يدل على ضعف الانفتاح والمصارحة بين منسوبيها وعلى ركود حركة النقد الذاتي فيها.

ج- بعض الذين ينتمون إلى جماعة أو حزب، أو يعملون في مؤسسة تعودوا أن يطلقوا العبارات الرنانة حول فضائل العمل الجماعي، وهم يبالغون في ذلك إلى أن ينسبوا إلى الفريق أو الجماعة التي يعملون معها ميزات وخصائص ليست لها؛ ويستمرون في التهويل إلى حد التهوين من شأن الإنجازات الفردية والزراية على أصحابها، وهم قلّما ينتبهون إلى أن هناك كثيراً من الأشخاص الذين ينتمون إلى جماعات لا يتمتعون بأي

درجة من الفعالية، وليس لهم أي إنتاج فكري أو تربوي ذي قيمة، كما لا ينتبهون في الوقت نفسه إلى أن هناك أفراداً كثيرين يقومون بأعمال ضخمة تعجز عنها مجموعات من الناس، ويستحق الواحد منهم أن يسمى بحق (الرجل/ المؤسسة)!

هذه المشكلات وأخرى غيرها كثيرة أدت إلى نفور كثير من الناس من الانخراط في أي عمل جماعي، ولذا فإن أمة الإسلام فقيرة جداً ـ إذا ما قيست بالأمم الأخرى ـ بالمؤسسات والمنظمات الطوعية والخيرية.

ولا بد من القول: إن شيئاً من العيوب والمشكلات التي ذكرناها موجود في كل الأعمال الجماعية لدى المسلمين ولدى غيرهم في القديم والحديث، حيث إن من طبيعة اجتماع الناس بعضهم ببعض توليد التوترات والاختلاف في الرأي والتصادم الشخصي والمصلحي... لكن الوعي بأخلاق العمل الجماعي وواجباته يخفف من هذه السلبيات والمشكلات إلى حد بعيد.

تعميق مفهوم العمل الجماعي يحتاج إلى الوعي بعدد من الأمور، منها: أن ندرك بعمق نوعية ما نطلبه من العمل الجماعي الذي نسهم فيه، لأن ذلك الإدراك هو الذي يساعدنا على تحسس النتائج التي حصلنا عليها. والحقيقة أن كثيراً من الناس يعجزون عن معرفة مكاسب العمل الجماعي الذي ينتمون إليه لأنهم لا يعرفون بالضبط ماذا يريدون منه!

ومنها الاعتقاد بأن أهمية العمل الجماعي تتجلى من خلال استدراكه للنقص الذي يعتري الأعمال الفردية؛ ولذا فإن الحاجة إلى الأعمال الجماعية تتضاءل كلما قلّت مساهمتها في تحسين سوية الأعمال الفردية. وهذه الرؤية تجعلنا ننظر إلى الأعمال الجماعية لا من خلال الشعارات والعواطف، ولكن من خلال ما تقدمه من عطاءات وما تشكله من إضافات.

ومن المهم بالإضافة إلى ما سبق إدراك كل عضو من أعضاء المنظمة أو الجماعة أو الفريق للخلفيات الثقافية التي تتحكم في تفكير زملائه، وهذا الإدراك يسهّل التعاون ويقلل من سوء الفهم الذي قد يقع، كما يجعل القرارات الكبرى أقل مجازفة.

ولا ننسى في هذا السياق أن نذكّر بضرورة فهم طبيعة العمل الجماعي وطبيعة المشكلات التي يفرزها احتكاك الناس بعضهم ببعض من نحو الغيرة والحسد وسوء الظن وسوء التقدير والاتكال وما شابه ذلك. . . ويظل تعميق المفاهيم بعد هذا وذاك مرتبطاً بملاحظة التأثيرات الخفية والتبادلات النشطة بين الأشياء والقوانين وبين الإنسان والبيئة، وذلك كله يرشِّد في النهاية ما نتخذه من قرارات.

الروح الجماعية روح سامية جداً، والعمل الجماعي والمؤسسي مهم للغاية في حياة الأمم، لكنه لا يؤدي دوره على النحو المطلوب إلا من خلال تعميق المفاهيم التي تكتنفه ومن

خلال البذل والتضحية بشيء من المتعة وشيء من المصلحة الخاصة في سبيل راحة الفريق والمصلحة العامة.

٤- الحرية:

يدرك كل الناس الحد الأدنى المطلوب من الحرية لحياة طبيعية، فالسجين يرى الحرية في خروجه من السجن، والمريض يراها في مغادرته لفراش المرض، والموظف يراها في استقالته من وظيفته، وهذا الإدراك لم يوجد إلا لأن هؤلاء يعرفون على نحو جيد حياة ما قبل السجن والمرض والوظيفة. ومن تلك المعرفة تتولد المعاني والمشاعر التي تشكل هالة الحرية والانطلاق دون عوائق.

فإذا تجاوزنا هذا الحد من مستوى الإدراك للحرية وجدنا أن معظم الناس لا يشعرون بالأغلال الثقيلة التي تقيدهم وتشل حركتهم، وما ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا طعم الانعتاق منها، وكيف يكون ذلك وقد ولدوا وعاشوا حياتهم كلها فيها. لو تأملنا في حياة معظم الناس؛ ولا سيما من يسمون بـ (العالم السفلي) لوجدنا أن مفاهيمهم عن الحرية قاصرة أو منقوصة، وأن سبب ذلك القصور يعود إلى أخطاء في التنشئة والتربية والتثقيف، كما يعود إلى سوء الأحوال والأوضاع التي يعيشون فيها.

بعض الناس نشأ في ظروف استعبادية، فلم يستطع معها تذوق طعم الحرية، فظن أن ما نشأ فيه هو شيء طبيعي، وأن

المساحة المتاحة أمامه من الحرية مساحة طبيعية وكافية، أو لا يمكن توفر ما هو أرحب منها، فهو أشبه بطائر خرج من بيضته في قفص، فذلك القفص في حسه هو العالم كله أو لا عالم سواه.

هناك من الناس من انتقص مفهوم الحرية لديه بسبب وقوعه في أسر شهواته وأهوائه، فقيوده أشياء من صنع يديه وضعف ذاته... إلخ.

إن تعميق مفهوم الحرية يحتاج إلى الآتي:

أ- الاعتقاد بأن جوهر الحرية يتمثل في القدرة على الاختيار؛ والقدرة على الاختيار لا تكون إلا عند وجود بدائل وخيارات، يأخذ منها المرء ما يشاء، ويدع ما يشاء، ولذا فإن الكثير من الشعارات التي تمجد الحرية سيكون محدود الفائدة مع وجود الفقر والقهر والشح والجهل والمرض والعجز. وكثير من أسباب ضمور مفهوم الحرية في عالمنا الإسلامي يعود إلى قلة الإمكانات والبدائل المتاحة، وذلك بسبب التخلف الذي يلف الكثير من جوانب حياتنا.

ب- غالباً لا نكون قادرين على إدراك مفهوم الحرية من أفق حياتنا الشخصية، فالمريض لا يدرك أنه مريض إلا إذا رأى الأصحاء. وهكذا الناس في العالم النامي في حاجة إلى أن يدركوا معاني الحرية من خلال مقارنة أحوالهم بأحوال الأمم

الأخرى، فالمقارنة هي أساس كل العلوم، وهي ذات قدرة عالية على تحريض الأذهان على الفهم العميق لكثير من الأوضاع والأحوال. وإذا قمنا بالمقارنة وجدنا أن ما نعده حلماً يعده غيرنا أحد مكتسباته التي لا يجوز التفريط بها!

ج- نحن بوصفنا مسلمين نفهم الحرية من أدبيات شريعتنا السمحة، فتعاليم الإسلام هي وحدها التي توفر لنا الضمانات كيلا تتحول الحرية إلى فوضى أخلاقية واجتماعية قاتلة، كما أنها توفر الأدبيات والأحكام التي تنير آفاق الحرية كيلا تتحول إلى ممارسات شكلية أشبه بممارسة السجين حريته نحو الطعام والشراب والنوم واللغو...

د- مفهوم الحرية لا ينمو من خلال الأقوال والشعارات، وإنما من خلال المبادرات والمواقف، وإذا نظرنا في تاريخ الأمم من حولنا وجدنا أن ترسيخ مفهوم الحرية على أساس الحقوق المشروعة، كان يستند دائماً إلى إحساس عدد كبير من الناس بالأَنَفَة ورفض الظلم والتأبي على أن يحيوا حياة نباتية هي أشبه بحياة السوائم الذليلة، مع أنهم يعرفون أن ذلك قد يكلفهم الحرمان من بعض الميزات، ويبعدهم عن دائرة الضوء، وأحياناً قد يسبب لهم نوعاً من الأذى، فهم يدركون أن التاريخ لا يكتب، وأن الناس لا يستطيعون أن يحيوا ـ كما أراد الخالق سبحانه لهم ـ أعزة كراماً أحراراً من خلال المزيد من الأخذ، وإنما من خلال

المزيد من العطاء والإيثار والكرم غير المشروط؛ فإذا رأينا شخصاً أو شعباً أو أمة في حالة استعباد فذلك بسبب فقد القدرة على العطاء والعجز عن دفع الثمن المطلوب!

التدين الحق مصدر ثري جداً لتنمية مفهوم الحرية وتعميقه، وأمة الإسلام أجدر الأمم بالعزة والكرامة لما تحمله في نفوسها من إجلا ل للحق وكره للباطل ولما تحمله في قلوبها من الزهد في المتاعِ الزائل والرغبة في التسامي، لكن ذلك لن يكون كافياً إلا إذا شُفع بتحسن مقبول في ظروف المعيشة من خلال توفر الحاجات الأساسية.

٥- المواطنة:

يسيطر على الكائنات الحية منذ القدم شعور قوي بضرورة امتلاك فضاء محدد من أجل صيانة الوجود وممارسة أنشطة الحياة وحماية الخصوصية. مع تطور الثقافات وتميز الاتجاهات تبلورت صيغة علاقة بين الإنسان والمكان، وأطلق على تلك العلاقة اسم (المواطنة). وقد اكتسب هذا المصطلح مع مرور الوقت من القيم والتقاليد والمفاهيم ما منحه نوعاً من التشخيص والانضباط.

مع تنامي حياة المدن وتراجع دور القبيلة في صياغة مفاهيم المعايشة وآدابها وتبعاتها تولّد لدى الناس نزوع متزايد إلى اعتبار المواطنة مصدراً لحقوق لا تنتهي، فلا يكاد الناس يحصلون على

شكل من أشكال الخدمة أو الرفاهية حتى تتفتق أذهانهم عن شكل جديد. وهذا شيء طبيعي يتفق مع ما فطر عليه الإنسان من حب الاستحواذ على الأشياء بأقل جهد أو مال أو وقت يبذله.

وحين نلقي نظرة على العالم الصناعي نجد أنه استطاع أن يتوصل إلى قوانين وأعراف وأدبيات وتوازنات تخفف من غلواء الانحراف بمفهوم المواطنة نحو الحقوق على حساب الواجبات.

أما في العالم النامي والمتخلف فالملاحظ أن هناك الكثير الكثير من التغني بحب الأوطان والكثير من الشعارات التي تؤكد على أنه لا شيء يمكن أن يقدَّم على مصلحة الوطن... لكن حين يدقق الإنسان فيما يجري على الأرض يجد أن الوطن هو المظلوم الأكبر، وأن تحقيق المصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة هو في ازدياد مطرد! ولا أريد الخوض في أسباب ذلك، لكني أقول: إن هذه الوضعية تشكل في العالم الإسلامي موضوعاً محزناً للقراءة، كما تشكل نوعاً من التراجع عما تم إنجازه من التمدن الإسلامي والرقي الإنساني العام.

المفهوم الإسلامي للمواطنة مفهوم متوازن وواقعي، حيث إن الإسلام ينظر إلى الارتباط العاطفي بمسقط الرأس ومدارج النشأة على أنه علامة على نبل المرء وكرمه، كما أنه يعد كل ما يمتلكه المسلم عن طريق مشروع مصوناً ومحترماً، وله أن يدافع عنه بكل وسيلة، وإذا قتل أثناء الدفاع عنه فهو شهيد؛ كما ورد

في الحديث الصحيح. ولا يستطيع المرء هنا تعداد ما أوجبه الإسلام للمسلم على أهل بلده وجيرانه من المعونة والرعاية والمواساة، وما وجّه إليه من ضرورة التكافل الخلقي والمالي والاجتماعي مما هو معلوم ومشهور.

أما موقف المسلم من وطنه ومواطنيه فإنه مبني على أساس الإيمان بأن معقد الابتلاء في الحياة الوطنية والاجتماعية يكمن في عدم تطابق مصالح المرء مع مصالح مجتمعه في غالب الحالات. ومن هنا فإن من علامات الصلاح والخير في الشخص أن يُؤْثر غيره على نفسه إلى حد التضحية بالروح إذا اقتضت سلامة الجماعة وحماية الأرض الإسلامية ذلك. وينظر إلى (الشهيد) في الإسلام على أنه النموذج الذي يشرف كل مسلم بحمل المعنى والرمز الذي يحمله.

الإحسان والإصلاح هما عماد السلوك الاجتماعي للمواطن الصالح، وذلك من خلال الزكاة والصدقة والعفو عن المسيء ونصرة المظلوم والمساهمة في تشييد المرافق العامة، ومن خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاصرة الشر وتحسين البيئة الاجتماعية والطبيعية...

إن قصور مفهوم المواطنة لدى كثير من المسلمين أدى إلى قصور التربية الأسرية والمدرسية، وقد صاحب ذلك أحوال

معيشية سيئة، تدفع أكثر الناس دفعاً إلى الأثرة والأنانية، وتشيع في نفوسهم الخوف من المستقبل إلى جانب التشكي من سوء الأحوال، فغلب على النشء روح السلبية والشعور بأن الدنيا مقلوبة رأساً على عقب!

أعتقد أن مثل هذه الوضعية تستحق أكثر من وقفة وأكثر من بحث ومؤتمر، لكن مهما فعلنا في سبيل تعميق هذا المفهوم، فلن نحصل إلا على القليل ما لم تكثر النماذج التي يتجسد فيها معنى المواطنة على الوجه الصحيح.

(٢٤)
رسوخ النظم

يتشوف الإنسان دائماً إلى أن يعيش حرّاً طليقاً من أي قيد، وكأنه بذلك يستجيب لنوازع داخلية، ويحنّ لنمط العيش الذي عاشه أجداده الأُول، حيث القليل جداً من الناس في مساحات شاسعة من الأرض، مما يجعل الاحتكاك بينهم محدوداً، ومما يجعل الإكثار من النظم التي تحكم حياتهم شيئاً لا معنى له.

مع مرور الأيام أخذت اليابسة بالازدحام، وكثرت الأنشطة التي تحتاج إلى تنسيق، كما صارت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية أكثر تعقيداً، وهذا كله جعل الحياة والعيش على أساس القوانين والنظم أمراً لا مفر منه. هذا ما تقضي به لغة العقل والمصلحة، لكن للقلب لغته الخاصة التي ترفض ذلك رفضاً تاماً؛ ولذا فإن أكثر الناس تحضراً ينتظر في يومه الأوقات التي يعيش فيها كما يحلو له دون الخضوع لأي قيد أو عرف أو نظام؛ وذلك يبدو بسبب سأم الروح من التكلف ومراعاة الآخرين.

العيش مع أقل قدر ممكن من النظم والقوانين ليس مطلباً شعورياً ونفسياً للواحد منا فحسب، بل هو مطلب حياتي عام، حيث دلت التجربة أن الإفراط في سَنِّ القوانين والنظم ليس أمارة

صحة بل هو أمارة مرض وفساد، لكن بشرط ألا يكون البديل عن النظام هو الفوضى والتسيب والنزاع والشجار، كما يحدث في الغابات وفي المجتمعات التي لم تستكمل أبنيتها الحضارية بعد.

وإليك بعض الإشارات حول هذه القضية المهمة:

١- يعني النظام مجموعة القواعد التي يتبعها شخص في التعامل مع قضية ما، أو مجموعة القواعد التي تحدد السلوك والعادات لشخص أو جماعة أو أمة في مجال من المجالات أو تجاه مسألة من المسائل.

والحقيقة أن الله ـ جل وعلا ـ خلق الكون، وجعله يعمل وفق نظم محددة، وذلك ملحوظ بقوة لدى الإنسان والنبات والجماد، ومن أدنى الأشياء إلى أعظمها حجماً وأهمية. وهذا يعني أن التوافق مع حركة الوجود يجب أن يتم وفق آلية معينة، وإلا أسأنا التصرف. وعلى سبيل المثال فإذا كانت هناك آلية معينة لارتفاع السكر لدى شخص أو ارتفاع ضغط الدم، وكان لذلك أسبابه المعروفة، فإن حماية المرء نفسه من هذين المرضين يجب أن تتم على أساس نظام من الحمية والرياضة والراحة النفسية... يتلاءم مع معرفتنا بالأسباب التي تؤدي إلى الإصابة بأي منهما. وقل مثل هذا في التعامل مع الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية.

إن سنن الله ـ جل وعلا ـ توضح لنا طبائع الأشياء والسبل التي تسلكها في تطورها، وبما أن البيئة المحيطة مملوءة بالأشياء

المختلفة، فإن الاستفادة منها ودرء مؤثراتها السلبية يتطلب المزيد من المعرفة بسنن الله تعالى، وخبرات البشرية الكونية قائمة في حقيقة الأمر على هذا بكل دقة.

٢- كلما طلبنا من الحياة أكثر كان علينا أن نبلور نظماً أكثر تعقيداً، وأن نزيد في درجة التزامنا بها؛ فالرجل الذي يسعى لنيل بطولة العالم في رياضة من الرياضات يحتاج إلى أن يتبع نظاماً علمياً صارماً في التدريب والغذاء والنوم والراحة... وصانعو الطائرات ـ وهم يخططون إلى اختراع طائرات تحقق سرعات متزايدة ـ يجدون أنفسهم مطالبين بإبداع المزيد من النظم التي تحافظ على سلامة الركاب، والنظم التي تساعد الطيارين على أداء عملهم بكفاءة أعلى... والدولة التي تتطلع إلى رفع مستوى العدالة الاجتماعية بين مواطنيها، في حاجة إلى المزيد من النظم التي تحسِّن وضعية تكافؤ الفرص، وتزيد في فاعلية نظام القضاء والتوظيف والضمان الاجتماعي... إلخ.

المسلمون اليوم ـ أفراداً وجماعات وشعوباً ـ في أمس الحاجة إلى فهم هذه الحقيقة والتناغم معها، حيث إن من المؤسف أن مطالب الكثيرين منا في حالة من الاتساع الدائم، فهم يريدون الحصول على كل ما يحصل عليه المواطن في البلدان الصناعية من رفاهية ومتع وإمكانات، لكنهم غير مستعدين للتخلي عن شيء من عاداتهم الشخصية، وغير قادرين

على تحسين الإنتاجية لديهم، كما أنهم غير قادرين على إبداع نظم جديدة للتنسيق بين جهودهم المبعثرة، وغير قادرين على تفعيل النظم الموجودة. وهذه الوضعية في غاية الخطورة من الناحية الأخلاقية؛ إذ إن اتساع الطموحات والتطلعات حين يصاحبه قصور في الفاعلية والإنتاجية والنظم يؤدي إلى إشاعة الكذب والخداع والرشوة والسرقة والطمع في تحقيق الأهداف عن طريق (الفهلوة) عوضاً عن اتباع الطرق الصحيحة المؤدية إليها.

٣- إذا رجعنا إلى أدبياتنا الدعوية والإصلاحية على مدار التاريخ الإسلامي وجدنا أنها تركز ـ على نحو عام ـ على تنمية الوازع الداخلي لدى الفرد المسلم والحكومة المسلمة، كما تركز على إيقاظ روح المثالية في الناس وتوضيح مقاصد التشريع إلى جانب الأضرار المختلفة التي تلحق بهم إذا لم يمتثلوا للنصائح التي يسمعونها.

ونحن نؤمن بأن الأصل في كل إصلاح أن يقوم على مبادرات الأشخاص واستجاباتهم الذاتية الحرة دون أي ضغوط من دولة أو قانون أو نظام... لكن هذا من الناحية العملية شيء لا يمكن التعويل عليه إلا بالنسبة إلى أشخاص توفرت لهم في الصغر درجة عالية من التربية والعناية، كما أنهم يتمتعون بدرجة عالية من الالتزام والتمسك بأهداب الدين القويم. أما السواد الأعظم من الناس فإنهم يحتاجون إلى جانب الجهود الدعوية والإعلامية إلى أن يعيشوا في بيئة تحكمها نظم واضحة وصارمة ومحترمة.

ووضوح النظم قضية مهمة، حيث تعاني معظم الأمم والشعوب النامية من غموض مريع في الحدود الفاصلة بين ما يجيزه القانون وما يمنعه؛ مما يجعل الناس يعيشون في حالة دائمة من الخوف والشك والتردد. وكثيراً ما يخدم ذلك الغموض المحامين الذين يفقد كثير منهم أي درجة من الالتزام بأخلاق المهنة التي نَدَبوا أنفسهم لها، كما يخدم المتسلطين الذين يستغلون مناصبهم لتحقيق مصالح شخصية.

أما احترام النظم فيأتي في الحقيقة من التربية البيتية أولاً؛ إذ إن الأسرة هي المطالبة بزرع حب النظام والامتثال له في نفوس الصغار وتعويدهم العادات الجيدة التي تجعل حياتهم تمضي داخل أطر وسياقات مشروعة ومقبولة. ثم إن تطبيق النظام بحزم على الصغير والكبير دون أي استثناء يعد مصدراً مهماً من مصادر احترام الناس له. وأعتقد أن أكثر النظم التي تحتاج إلى درجة عالية من الحزم والصرامة في تطبيقها هي تلك النظم التي تقنن (استثمار التفوق) في المجتمع. التفوق قد يكون في الذكاء أو النسب أو الوجاهة الاجتماعية أو المال والثروة... والناس لا يتأذون في العادة من الميزات التي وهبها الله ـ تعالى ـ لبعضهم إلا حين تستخدم تلك الميزات استخداماً غير مشروع، يؤدي إلى انتقاص حقوقهم أو تفويت بعض الفرص عليهم أو العدوان على أموالهم وأعراضهم. وإذا رجعنا إلى واقع حياتنا المعاصرة وجدنا

أن كل الشعوب المتمدنة تملك النظم والقوانين التي تحاول إبقاء الاستفادة من التفوق في إطار الجائز والمشروع، لكن الدول التي نجحت في ذلك محدودة، وحتى نجاح هذه لم يكن مطلقاً لكنه مناسب. وعند قراءتنا لأسباب نجاحها نجد أنها موحدة على مستوى العالم. وتلك الأسباب لا تعود لدى أبنائها إلى قوانين محكمة ولا إلى سجون كثيرة. وإنما تعود إلى أمر واحد، هو أنها تملك نظماً وآليات تتيح ممارسة الرقابة لجميع الناس بعضهم على بعض. وفي تقديري أنه ليس أمامنا طريق لتحقيق ذلك غير هذه الطريق..

وقد عانى الإسلام طويلاً وعلى مدار التاريخ مع العرب وغيرهم في عملية نقلهم من وضعية (القبيلة) حيث يكون للقرابة والأنساب الدور الحاسم في تقرير كثير من الأمور إلى وضعية (الدولة) حيث النظم والأحكام واللوائح التي تطبق على جميع الناس وفي كل الظروف والأحوال. وقد تحققت نجاحات محدودة في هذا المجال في بعض الفترات التاريخية، وكأن من أهم أسباب تحقيقها الرادع الداخلي الذي يفترض وجوده لدى كل مسلم؛ لكن علينا أن نكون على وعي أنه في عالم مادي - كعالمنا - كثير المطالب شديد الوطأة يصبح تأثير الوازع الداخلي والأخلاق الشخصية في كف معظم الناس عن الانحطاط السلوكي ضعيفاً ومحدوداً.

هذا الاستثمار غير المشروع للتفوق لم يفك اللحمة الداخلية للحياة الاجتماعية، ولم ينشر الحقد والحسد، ولم يؤد إلى الشعور باليأس والإحباط فحسب، ولكنه شوش التفكير المنطقي لدى الناس، حيث تسود رؤية غائمة للعلاقة بين الأسباب والمسببات، وحيث يشيع اعتقاد راسخ بأن العمل والجد والاجتهاد لا تؤتي ثمارها دائماً، على حين يصل أناس كثيرون إلى الكثير من المكاسب دون وجه حق!

٤- مع أننا نختلف مع الغرب في أمور جوهرية إلا أننا لا نملك إلا أن نعترف بأنه أبدى عبقرية نادرة في إبداع النظم وتأسيس خطوط العمل والإنتاج. وذلك لا يعود إلى تفوق عقلي فريد، وإنما إلى إدراك عميق لأهمية تنظيم الحياة من أجل تسهيل الحركة والتخلص من الفوضى التي يميل إليها الناس غريزياً، كما يعود إلى الاستثمار الضخم للوقت والمال والجهد في مجال بناء النظم، والعالم كله في هذا الشأن مدين للحضارة الحديثة.

وجود النظم يوفر بيئة عمل تساعد على تسايل المعلومات وتبادل الخبرات، كما تساعد على استثمار الطاقات المحدودة على أفضل وجه ممكن. وقد صار من الواضح أن وجود البيئة المنظمة والملائمة كثيراً ما يكون أهم من العبقريات الفردية، حيث تتأثر إنتاجية الأفراد على نحو جوهري بالنظم التي ينتجون على أساسها؛ ولك أن تتأمل أثر البيئة الطبية الممتازة في تعليم

الأطباء وتدريبهم وعطائهم، وتقارن ذلك بما يسود في مستشفى في بلد متخلف. ويمكنك أن تقوم بهذه المقارنة في مجالات البحث العلمي والزراعة والصناعة لتحصل على عين النتائج.

هذا كله يعني أن أمة الإسلام في حاجة ماسة إلى إدراك قيمة النظم الجيدة والفعّالة في حياتها، كما أنها تحتاج من الخيِّرين من أبنائها أن يجعلوا من جملة همومهم تقديم نظم متطورة، يتم من خلالها تحسين بيئات العمل وإغناء حياة الأمة بالمفاهيم والآليات التي تساعد الأجيال الجديدة على الاندفاع في سلوك النهوض والارتقاء.

٥- لا يجوز مع كل ما ذكرنا عن أهمية النظم والقوانين في حياة الأمة أن نغفل بعض المشكلات التي تفرزها كثرة القوانين في الحياة العامة، وهي في الحقيقة عديدة، لكن سأتناول أهمها في النقاط الثلاث الآتية:

أ- يميل الإنسان إلى الطلاقة والحرية ـ كما ذكرنا ـ ولذا فإنه ينبغي أن يُنظر إلى القوانين واللوائح التي تحدد سلوك البشر، على أنها شيء معكر لأمزجة الناس ومضاد لروح المبادرة التي يجب أن يتحلى بها كل واحد منهم. وهذا يعني أن لنا أن ننظر إلى القوانين على أنها قيود وظيفية، لا ينبغي أن يؤتى بها إلا لحاجة حقيقية، وينبغي أن يكون دورها الأساسي هو الحماية: حماية المبادىء وحماية الملكية وحقوق الناس... ومن

المؤسف أن الشعوب النامية غارقة في بحار من القوانين الغريبة العجيبة، حتى صار كثيرون يظنون أن الأصل في الأشياء الحظر وليس الإباحة، ولذا فإن التوجس غالب عليهم. وتلك القوانين كثيراً ما تؤسَّس على أن الأصل في المسلم عدم العدالة وعدم الأمانة والاستقامة، مع أن النظرة الشرعية والحضارية الحديثة مضادة لهذا. وكلما وقع خطأ أو تجاوز سُنَّ قانون جديد من أجله.

إن كثرة القوانين فضلاً عن أنها مربكة هي باب من أبواب الفساد، حيث يرتزق من ورائها أولئك الذين ماتت ضمائرهم، ولذا فإن الغرب وجّه جهوده خلال الخمسين سنة الماضية إلى إلغاء ما يمكن إلغاؤه من القوانين؛ ولا سيما تلك القوانين التي فقدت وظيفتها بسبب كون الامتثال لها صار عادة أو عرفاً اجتماعياً.

ب- يظن كثير من المهتمين بشؤون الأمة وكثير من المثقفين أنهم إذا تمكنوا من السيطرة على آلية صنع القرار فإنهم سيحققون كل أحلامهم في الإصلاح والتقدم والنهوض، ولذا فإنهم يصرفون الكثير من الأوقات والجهود في الحديث عن إصلاح القوانين والفوز في الانتخابات وما شاكل ذلك. . . وأنا هنا لا أهوِّن من شأن سنّ القوانين الصالحة ولا من التمكن من رسم السياسات الحكيمة، ولكن أود أن ألفت الأنظار إلى أنَّ ما لمسناه من بعض الدعاة من الانصراف عن القيام بواجب الدعوة نحو العمل على الحصول على بعض المكاسب السياسية يشكل خطأ

بنيوياً؛ إذ قد تعلمنا من تجارب التاريخ أن تشييد الطابق العلوي في بناء الأمة مع تآكل الهياكل والبنى الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والحضارية عامة، سيكون قليل الجدوى محدود الفائدة. ولست أدري ما الذي يمكن أن يقدمه أفضل القوانين وأفضل الساسة للإنسان الكسول والإنسان المبذر والمنحرف والمفرّط في تربية أولاده والمنصرف عن التعلم والتثقف والمؤذي لوالديه وأهله. . . ؟

إن علاج هذه المشكلات يحتاج إلى العمل على مستوى القواعد والجذور عن طريق التربية والتوجيه والمبادرة الشخصية، وهو ما يجب أن ينصرف إليه أعظم الجهود والإمكانات؛ فالأمة من الآن فصاعداً لن تنهض النهوض المأمول إلا إذا سرى روح جديد في كل واحد من أبنائها، وإلا إذا تغيرت الأهداف والبرامج الحياتية لدى السواد الأعظم منا.

ج- إن أفضل التنظيمات هي تلك التي تتم على المستوى الاجتماعي، أي التي يضعها الناس بمبادرة منهم، كما أن أفضل القوانين تلك التي يُلزم الناس أنفسهم بها عن طيب خاطر منهم.

هذا هو ملخص الرؤية الإسلامية في هذا الشأن؛ إذ إنّ معظم التوجيهات والنصوص الواردة ترمي إلى جعل المجتمع يتولى تنظيم شؤونه بنفسه قدر الإمكان. وكلما استطاع المجتمع سد حاجاته عن طريق مؤسساته الخيرية والتطوعية دلّ ذلك على

فضله ونضجه ونهوضه. وهذا ما نلمسه في صدر الإسلام على نحو واضح.

وعند مراجعتنا للأسس العميقة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية نجد أنها قامت على جهد هائل على مستوى التعليم والتربية والبحث والإبداع، وعلى مستوى التكافل الاجتماعي ومساعدة العناصر الضعيفة، بل إن الناس كانوا يبادرون من تلقاء أنفسهم إلى المرابطة في الثغور من أجل حماية بلاد المسلمين من الغزو الخارجي، أي امتدت مبادراتهم إلى أعمال هي في العادة من صميم مسؤوليات الدولة! إن كل ما قلته في هذا الشأن هو عبارة عن رؤوس أقلام وهو يحتاج إلى الكثير من التفصيل والتوضيح، ولكن أردت أن ألفت النظر إلى أهمية الوعي بهذه الأمور من أجل إنضاج ثقافة شعبية حولها.



(٢٥)
العجز مصدر شرور

لو عدنا بذاكرتنا إلى الوراء وتلمّسنا الأدبيات التربوية التي كانت شائعة لدى أسلافنا لوجدنا أن هناك نوعاً من الارتياح لما يمكن أن نسميه انحسار الذات وتضاؤل المجال الحيوي لحركة الإنسان، وتجد في ثقافة أهل الزهد والتعبد تحبيذاً قوياً للعزلة والصمت وتخفيض الطموحات والبعد عن الأضواء إلى أقصى حد ممكن، وأنا لا ألوم السابقين على ذلك، إذ ربما نشأت الدعوة إلى هذه المعاني في ظروف انتشرت فيها اللصوصية والنهب والسلب والجشع والأثرة والترف والإغراق في كل ما هو دنيوي، أي أن الدعوة إلى سلوك العاجزين كانت من أجل إيجاد نوع من التوازن الاجتماعي، واستمرت تلك المعاني لتشكل في النهاية جزءاً من البنية العقلية والشعورية للأمة مع تغير الأحوال والأوضاع التي سوغت الدعوة إلى سلوكات العجز التي أشرنا إليها!

لست أميل إلى إطلاق الأحكام والنظر بعين واحدة، ولذا فإني لا أستطيع القول: إن كل حركة بركة، والقول: إن النشاط والحيوية والاندفاع لاصطياد الفرص وتحقيق النجاحات الكبرى والعلاقات الواسعة... هي دائماً أمور جيدة ومحمودة

ومطلوبة؛ فالسلوكات لا تمدح لدينا ـ نحن المسلمين ـ لأنها تبدو جالبة لمنفعة أو مصلحة مادية فحسب، وإنما ينظر إليها من زاوية مقاصدها، أي النيات الدافعة إليها، ومن زاوية مشروعيتها، أي كونها أنشطة مباحة في نظر (الفقيه)، كما ينظر إليها من منظار التوازن العام للشخصية، إذ لا يصح أن ينهمك الإنسان في عمل صالح على حساب عمل آخر عليه أن يؤديه.

وتأمل معي قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾[1].

إن الله ـ جل وعلا ـ لم يضع في مقابل الضعيف الذي لا يقدر على شيء ذلك الرجلَ القوي الكفء واسع النشاط، وإنما وضع في مقابله الرجلَ الذي آتاه الله المال فأنفقه في الخير سراً وجهراً؛ كما أنه لم يضع في مقابل الأبكم الرجل المنطيق البليغ الذي يسحر الناس ببيانه، وإنما وضع في مقابله رجلاً فصيحاً يأمر بلزوم الطريق المستقيم وهو مع ذلك مستقيم على طريق الهداية. وهكذا فالقوة مقيدة بالخلق والمشروعية.

---

(١) سورة النحل: ٧٥، ٧٦.

إذا اتضح هذا أمكننا أن ننتقل إلى التساؤل التالي: هل الأضرار الفردية والاجتماعية التي تحدث بسبب الانحسار والتكاسل والتقاعس والعجز أكبر، أم الأضرار التي تحدث نتيجة الحركة والفاعلية والجدية والطموحات المديدة..؟

بعد أخذ الملحظ السابق بعين الاعتبار، والأخذ بالاعتبار أيضاً الأوضاع والأحوال التي يعيش فيها المسلمون، يمكن القول: إن الأضرار والشرور التي تترتب على العجز وقلة الحيلة.. أكبر بكثير من الأضرار التي تترتب على الفاعلية والنشاط... ويحضرني في هذا المقام ما ذكره ابن خلدون في (مقدمته) عن مزايا الأجير الماهر الذي تنقصه الأمانة، والصانع الأمين الذي لا مهارة لديه ولا إنتاجية جيدة؛ فقد رأى الرجل أن الشخص الذي تستأجره إذا كان ماهراً في عمله، فإن في الإمكان أن تجد بعض الطرق التي تحول إلى حد بعيد بينه وبين السرقة والخيانة، وبذلك يمكن أن تنتفع به. أما الأجير غير الماهر فإنك لا تدري كيف ستنتفع به، وحينئذ فلن تستفيد أيضاً من أمانته.

وهكذا فالإنسان المعطاء المتحرك المنتج يمكن توجيهه، ويمكن أحياناً الأخذ على يديه، كما يمكن وضعه ضمن سياق تنظيمي يحد من الأضرار التي يمكن أن يسببها لنفسه أو لغيره بسبب عدم التزامه، أما الإنسان الكَلُّ المحطم العاجز، فإن وجوده ضمن مجموعة قد يغريها بالتكاسل والتسيب، بالإضافة

إلى أن ما يرجى من وراء عمله يظل قليلاً أو معدوماً. ومع ذلك فإن هذا الحكم ليس مطلقاً، ولا ينطبق على كل أحد، ولكل واحد منا أن يتأمل في أوضاعه الخاصة، ويتخذ القرار المناسب، لكن يمكن القول مع ذلك: إن هذه الرؤية تتسم بقدر كبير من القابلية للتعميم على كثير من الناس.

روي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «إلى الله أشكو جَلَد الفاجر وعجز الثقة». وتلك الشكوى من ذلك الرجل العظيم تعبير عن وجه خطير من وجوه الخلل في حياتنا الاجتماعية، حيث يسيطر في كثير من الأحيان على الحياة العامة أولو القوة والتفوق والنشاط والكفاءة، فيوجهونها توجيهاً سيئاً ومدمراً؛ وحيث يتوارى الثقات المؤتمنون على عقيدة الأمة ومصالحها بسبب عجزهم وكسلهم وفوضويتهم وقلة خبرتهم وضعف كفاءتهم!

إذا تأملت في الشرور والمفاسد التي يجرها عجز العاجزين على أنفسهم ومجتمعاتهم لوجدت أنها كثيرة، ولأمكنك أن تعد منها الآتي:

- انتشار مشاعر الإحباط وانسداد الآفاق وذلك لأن إحساس المرء بالدونية والعجز عن القيام بما يقوم به أقرانه يُربك وعيه ويفقده ثقته بنفسه؛ ولو أننا استطعنا قراءة أفكار أولئك العاجزين وانطباعاتهم عن أنفسهم لوجدنا أنهم يعتقدون بأنهم أشخاص لا أهمية لهم، ولا قيمة، وأن نصيبهم من الحمق والضعف العقلي

ليس قليلاً. وكثيراً ما تأتي الوقائع وشواهد الأحوال لتزيد في محنتهم، ولتؤكد صدق الصور التي كوَّنوها عن أنفسهم. والنتيجة لكل ذلك، هي العزوف عن المحاولة وانقطاع الرجاء من حدوث أي تقدم.

- الحسد وسيطرة روح الانتقام، حيث يتصور الشخص الذي يشعر بالعجز والضعف أن ما هو فيه بسبب ظلم الآخرين له أو تخليهم عنه، ولذا فإن صدره يغلي بالحقد، ويتمنى أن ينزل بالآخرين مصائب لا نهاية لها!

- سلوك سبل الاحتيال والكذب والخداع بوصفها وسائل للخروج من الأزمات التي تحل بمشلولي الحركة وضعيفي الكفاءة والقدرة، وبوصفها وسائل لتوسيع المجال الحيوي الذي توفره عادة اللياقة العامة. وهذا واضح لدى العديد من الشعوب الإسلامية التي صار الفقر فيها عبارة عن وباء مستوطن.

- انهيار البيئة الطبيعية، حيث إن الأرض التي نعيش عليها لا تحافظ على قدرتها على العطاء إلا من خلال العناية المستمرة، وحين يتقاعس الناس عن القيام بذلك، فإنها تتآكل يوماً بعد يوم كما يتآكل كل منزل هجره أهله، وكفوا عن صيانته؛ وقل مثل هذا في حياتنا الاجتماعية.

- هيمنة الأعداء وطمع المنافسين حيث يغري العجز والضعف الأعداء بالتسلط والعدوان، وهذا بدوره يجعل الناس

يشعرون بأنهم مقهورون مغلوبون، وهذا ما تعاني منه أمة الإسلام منذ أمد ليس بالقصير!

- نحن في عصر التنافس الأممي، فلا يكفي أن تكون على الطريق الصحيح، بل لا بدَّ من أن تسير فيه بجد وإلا داسك الآخرون. ونظراً لانتشار الظلم والفساد واستخدام القوة والنفوذ، بالإضافة إلى تدني مستوى الوازع الخلقي لدى كثير من الأشخاص وكثير من الأمم أيضاً، فإن السيطرة والقدرة على الاستمرار لم تعد ملكاً للأصلح، وإنما للأنجح والأقوى. والمطلوب من مسلم اليوم أن يكون بحق الأصلح والأنجح حتى يستطيع القيام بحمل رسالة الإسلام وعيش عصره بجدارة.

إن هناك ضرورة ملحة لأن ننشر ثقافة التخلص من الوهن والانحسار والقعود عن احتلال المواقع التي نستحقها، والتي تليق بنا. وأول ما علينا أن نقوم به في عملية نشر تلك الثقافة هو تنبيه الناس إلى مخاطر ضعف الإنتاجية، فنحن أمة تعاني من أشكال عديدة من التخلف ولا سيما في المجال التقني والصناعي؛ ونسبة الفقراء والذين يشعرون بالقهر وقلة الحيلة عالية جداً؛ ولا خلاص لنا من هذا إلا بارتفاع كبير في نسبة الأفراد القادرين على مساعدة الضعفاء وسد الثغرات ورفع السوية العامة للأمة.

نحن نريد أن نتخلص من الحياة المحفوفة بالضرورات، وهذا لا يكون من غير أن نمتلك جرأة كجرأة البحّار، وأن نمتلك

الإرادة الماضية التي لا ترى في الحصول على هدف سوى نقطة انطلاق صوب أهداف جديدة.

إنه مهما شعرنا بعدم تكافؤ الفرص، ومهما شعرنا بوجود ظلم اجتماعي فاقع، فإن علينا أن نحافظ على اعتقادنا بأنه ستظل هناك أبواب مفتوحة يلج منها ذوو الموهبة والجد والمثابرة، وإن الله ـ جل وعلا ـ لا يحرم أي إنسان من ثمار عمله وكفاحه، ولو كان ذلك الإنسان غير مسلم.

إن الإنسان العاجز لا يبحث عن الفرصة التي يحقق من خلالها ذاته، وإذا جاءته الفرصة لم يستطع التعرف عليها؛ لأن وضعيته العقلية والنفسية وخبراته الضحلة تلقي باستمرار بالأغشية على بصره وبصيرته، فلا يرى ما يراه غيره!

أما الأكفاء الجادون ذوو الهمم العالية، فإنهم لا يستفيدون من الفرص المتاحة فحسب، ولكنهم باجتهادهم يوجدون الفرص، ويشكِّلون الظروف التي تخدمهم وتساعدهم. وقد علَّمنا نبينا ـ ﷺ ـ أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وأن اليد العليا خير من اليد السفلى، كما أنه كان يستعيذ من العجز والكسل والجبن والبخل وقهر الرجال، وهي أدواء تحل بالإنسان حين تتقاصر مفاهيمه عن إدراك طبيعة التكليف الرباني وطبيعة متطلبات العيش في زمان مثل زماننا.

هذا ما أردت قوله في هذا الكتاب، وهو جهد المقلّ الكليل، لكن أسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يبارك فيه، وأن ينفع به المسلمين إنه وليُّ ذلك والقادر عليه؛ وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع مختارة

١- أسس التقدم عند مفكري الإسلام ـ تأليف د. فهمي الجدعان، الأردن ـ دار الشروق، ط ثالثة ١٩٨٨ .

٢- بحثاً عن عالم أفضل ـ تأليف كارل بوبر ـ ترجمة أحمد مستجير، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٦ .

٣- التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية ـ تأليف محمد عز الدين توفيق، القاهرة ـ دار السلام للنشر، ط أولى ١٤١٨ .

٤- تجديد الوعي ـ تأليف د. عبد الكريم بكار، الرياض ـ دار المسلم، ط أولى عام ١٤٢١ .

٥- تعديل السلوك ـ تأليف د. جمال الخطيب، الكويت ـ دار الفلاح، ط ثالثة ١٤١٥ .

٦- التفكير المستقيم والتفكير الأعوج ـ تأليف د. روبرت ثاولس ـ ترجمة حسن الكرمي، الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة .

٧- ٣٦٥ خطوة للنجاح ـ إعداد الدار الدولية للنشر ـ القاهرة ـ ط أولى عام ١٩٩٦ .

٨- سلطان الإرادة ـ عرض وتلخيص د. عبد اللطيف شرارة، بيروت ـ المجموعة، ط أولى عام ١٩٩٦ .

٩- عصرنا والعيش في زمانه الصعب ـ تأليف د. عبد الكريم بكار، دمشق ـ دار القلم، ط أولى عام ١٤٢١.

١٠- فكّر لتصبح غنياً ـ تأليف فيليكس جاكسون ـ ترجمة مركز التعريب والترجمة في الدار العربية للعلوم، ط ثانية عام ١٤١٩.

١١- فلسفة العمل ـ تأليف هنري أرفون ـ ترجمة د. عادل العوا، بيروت ـ دار عويدات، ط ثانية عام ١٩٨٩.

١٢- الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ـ تأليف د. عبد الله الشريط، تونس ـ الدار العربية للكتاب، ط ثالثة عام ١٩٨٤.

١٣- قوة الاعتزاز بالنفس ـ تأليف ساموبل أ. سيبرت، الرياض ـ مكتبة جرير، ط أولى عام ١٩٩٩.

١٤- نجاحك في البساطة ـ تأليف جاك تروت وستيف رفكن ـ ترجمة عيسى زايد، نشر بيت الأفكار الدولية.

١٥- نقطة الضعف ـ تأليف مصطفى غالب، بيروت ـ دار ومكتبة الهلال، عام ١٩٨٦.

فهرس الأفكار والمقولات العامة

- إذا لم نستطع اكتشاف الحقيقة، فلا أقل من أن نشعر أننا على الطريق الصحيح للوصول إليها. ٥٠

- من أهم سمات الإنسان الناجح أنه يملك القدرة على أن يخطو الخطوة العملية المطلوبة نحو ما يحلم به. ٥١

- تشكلت البنية العميقة لعقلية الإنسان في العالم الصناعي على إيقاع العمل والدأب والإنتاج والمثابرة. ٥١

- على حين يقتات الناس في عالمنا على الأحلام والأمنيات تقوم البيئة المحيطة بدفعهم نحو الوراء! ٥٢

- إذا لم يستطع الفرد المسلم تغيير أسلوبه في التعامل مع المهام والواجبات والتطلعات؛ فإن الحديث عن تقدم الأمة سيكون ضرباً من الأحلام الجميلة. ٥٢

- ضعيف الخبرة والتجربة يرى نفسه دائماً في وضعية أقل مما هي عليه. ٥٢

- ما زال معظم ما لدى الناس من طاقات وإمكانات كامناً ينتظر التنقيب والتحرير. ٥٣

- من خلال الممارسة والمخاطرة نكتسب حاسة جديدة لإدراك حجم المخاطر والمغامرات. ٥٣

- الحقيقة أن الأمم لا ترتقي من خلال الأفكار المجردة إذا لم يصاحبها برامج عمل في مجالات الحياة المختلفة. ٥٤

- لا يكون المرء عملياً بالمعنى الدقيق للكلمة إذا لم يقم بكل ما من شأنه تسهيل عمله. ٥٤

- قليل من التخطيط والتنظيم في بداية كل يوم يجعل العمل أكثر سلاسة وأعظم نفعاً. ٥٥

ـ به من الوحي والمنهج. ٩٤

- إن التاريخ يمنحنا البصيرة بخفايا النفس البشرية حين يُطلب منها العمل وفق مخطط توجيهي وفي إطار أحكام واضحة ومحددة. ٩٥

- إن فهمنا للتراث وللتاريخ لم يكتمل بعد، لأن آليات الفهم لدينا ونظم التفكير ما زالت في حالة من النمو والتجلي المتجدد. ٩٧

- نحن أمة لا تستطيع الاحتفاظ بجوهر وجودها من غير الدين الذي تؤمن به، ومن غير استهداف إبلاغ رسالة الإسلام للعالم. ٩٧

- قد بات واضحاً أن الاقتصار على إحياء التراث ونشره والتغني به لن يكون كافياً لتشييد كيان أمة الإسلام من جديد. ٩٨

- سوف ننجح في إحداث نقلة نوعية في حياتنا إذا نجحنا في جعل الانفتاح على الماضي محفزاً على التجديد والتخطيط للمستقبل. ٩٨

- يجب أن يكون هدفنا الدائم هو تحرير الذات من الجهل والخرافة والعبودية ومن قيود الحاجة والضرورة وويلات التشتت والتمزق. ٩٨

- سوف يظل التراث حياً ما دمنا قادرين على توظيفه في الإجابة على أسئلة المستقبل. ٩٨

- تستطيع الصحوة الإسلامية المباركة الحفاظ على زخمها وحيويتها إذا استطاع رجالها المشاركة الجادة في إيجاد حلول عملية للمشكلات السياسية والاجتماعية... ٩٩

- نحن في حاجة إلى الوعي بما يمكن أن نسميه (التراث الوظيفي) أي مجموع الخبرات والمفاهيم التي يمكن توظيفها في نهضة الأمة. ٩٩

- نحن بسبب ميوعة كثير من الحقائق وبسبب قصور اللغة، مضطرون للوقوف تجاه كثير من الاختلافات موقفَ من لا حول له ولا

الإسلام، أو يتصرف انطلاقاً منه تصرفات خاطئة، إلا أن فكر التسامح والاعتدال ظل هو المهيمن والمسيطر. ١٣٩

- العلمانية ليست شيئاً مطابقاً للديمقراطية ولا الليبرالية، فدول المعسكر الاشتراكي كانت مغرقة في العلمانية - أكثر من الغرب - ومع هذا فإنها لم تكن ليبرالية ولا ديمقراطية. ١٤٠

- في آسيا وأفريقيا دول كثيرة جداً لا تدين بأي دين، ومع ذلك فإن عدم تدينها لم يجعلها ديمقراطية. ١٤١

- يريد بعض كتاب الغرب من المسلمين - حتى لا يكونوا أصوليين - ألا يؤمنوا بأي شيء، وحتى يكونوا متسامحين، أن يتنازلوا عن كرامتهم وحقوقهم! ١٤٢

- الشعوب في الغرب تشكل وجه البلاد الحقيقي هناك، وتشكل الحكومات القناع الذي صنعته امتدادات الروح الاستعمارية. ١٤٣

- العظمة الحقيقية للإنسان لا تكمن في كثرة ما يملك، ولكن فيما يحققه من سمو روحي وخلقي. ١٤٥

- التقدم العمراني والمادي مظهر من مظاهر إنسانية الإنسان وبرهان على جدارته وارتقاء وعيه بحاجاته. ١٤٥

- عندما نغمض أعيننا عن جوهر غايات وجودنا، فإن التقدم العمراني الذي يحصل الآن سيزج بنا في أتون المفاهيم الأساسية التي تحكم الحياة في الغرب العلماني. ١٤٥ - ١٤٦

- التحول من استيحاء روح (الشهيد) إلى استيحاء روح (البطل) صار يظلل حياة كثير من المسلمين اليوم. ١٤٦

- كثير من النجومية يتحقق اليوم خارج نطاق المبادىء وخارج نطاق القوانين والنظم، وهذا أحد أسرار انحطاط الأمة! ١٤٧

- توضيح ما يريده الإنسان على نحو دقيق يساعد على إزالة الأوهام التي تعشش في ذهنه، ويخلصه من الشعور بصعوبات لا وجود لها. ١٥٣
- بمجرد أن يشعر الإنسان أنه يتقدم تتولد لديه طاقات جديدة تدفع به نحو الأمام باطمئنان وثبات. ١٥٣
- يقدّر الناس الطيبة والتعفف وبذل المعروف على نحو أعمق من تقديرهم للنجاح والتفوق والثراء. ١٥٣
- نحن لا نملك زمام الأمور، ولذا فإن علينا أن نتوقع دائماً حدوث ما ليس في الحسبان. ١٥٤
- كثيراً ما يكون سبب شقاء الإنسان نابعاً من طلبه للحلول المثالية في عالم غير مثالي. ١٥٥
- سيظل الوسط الذي نريده ونبحث عنه أقل مما نأمل. ١٥٥
- القيام بالمهمات وتحمل المسؤوليات كثيراً ما يكون السبيل الوحيد لتنمية الشخصية وبلورة الإمكانات. ١٥٦
- نصف نجاحات المرء من جهوده وأهليته والنصف الآخر من البيئة والمعطيات التي تكتنف أنشطته. ١٥٦
- إن التاريخ يُصنع من وراء التصدي للمهمات الجليلة ومن وراء التغييرات الأساسية التي ندخلها على حياتنا الشخصية. ١٥٧
- إن إعراض أهل الخير عن شغل المراكز المهمة في حركة الحياة يسبب وجود فراغات يملؤها الأشرار بالأمور السيئة! ١٥٧
- معظم مشكلات هذه الأمة نابع من عقولها وقلوبها وسلوكاتها. ١٥٨
- يقع الإنسان في أسر المشاعر والانطباعات الخاطئة كلما امتدت لديه المساحات التي أفلتت من قبضة الوعي. ١٥٨
- كم من قول مأثور بلغ الآفاق على الرغم من نشوئه من خبرة ناقصة

- في زمان تجتاحه المادة يكون توفير بيئة تحكمها نظم واضحة وصارمة ومحترمة أمراً ملحاً . ١٩٤

- غموض القوانين والنظم يجعل الناس يعيشون في حالة من الخوف الدائم، ويتيح للمتسلطين الرشوة والابتزاز . ١٩٥

- أكثر النظم التي تحتاج إلى الصرامة في تطبيقها، تلك النظم المتعلقة باستثمار التفوق الشخصي والاجتماعي . ١٩٥

- النجاح في تطبيق النظم مدين للآليات التي تتيح للناس أن يراقبوا بعضهم بعضاً . ١٩٦

- في عالم كثير المطالب شديد الوطأة يصبح دور الوازع الداخلي في كف الناس عن الانحطاط السلوكي غير كاف . ١٩٦

- الاستثمار غير المشروع للتفوق فكك اللحمة الداخلية للتضامن الاجتماعي، وشوش رؤية الناس للعلاقة بين الأسباب والمسببات . ١٩٧

- كثيراً ما يكون وجود البيئة المنظمة والملائمة أهم في تحسين الإنتاجية من العبقريات الفردية . ١٩٧

- الدور الأساسي للقوانين وللحكومات هو الكبح والحماية، ولا ينبغي أن ننتظر منها الكثير مما سوى ذلك . ١٩٨

- لن تنهض أمة الإسلام إلا إذا تغيرت الأهداف والبرامج الحياتية لدى السواد الأعظم من الناس . ٢٠٠

- قامت حضارة الإسلام على جهد شعبي هائل في كل المجالات حتى طال مجالات هي من صميم اختصاصات الدولة . ٢٠١

- أفضل النظم والقوانين هي تلك التي يبدعها الناس، ويلتزمون بها عن طيب خاطر . ٢٠٠

- كانت الأدبيات التربوية لدى السابقين ترمي إلى إصلاح الفرد عن



فهرس الموضوعات

من آثار المؤلف

١- الصفوة من القواعد الإعرابية، دمشق، دار القلم، ط أولى.

٢- أثر القراءات السبع في تطوير التفكير اللغوي، دمشق، دار القلم، ط أولى.

٣- القواعد والإرشادات في أصول القراءات (تحقيق)، دمشق، دار القلم، ط أولى.

٤- المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دمشق، دار القلم، ط أولى.

٥- رد الانتقاد على الشافعي في اللغة للبيهقي (تحقيق) بريدة، مكتبة البخاري، ط أولى.

٦- ابن عباس مؤسس علوم العربية، عمان، دار الأعلام، طبعة ثانية.

٧- فصول في التفكير الموضوعي، دمشق، دار القلم، ط ثانية.

٨- نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، الرياض، دار المسلم، ودمشق، دار القلم.

٩- من أجل انطلاقة حضارية شاملة، الرياض، دار المسلم ودمشق، دار القلم.

١٠- مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، الرياض، دار المسلم، ودمشق، دار القلم.

١١- مدخل إلى التنمية المتكاملة، الرياض، دار المسلم
ودمشق، دار القلم.

١٢- تجديد الوعي، الرياض، دار المسلم، ودمشق، دار القلم.

١٣- حول التربية والتعليم، الرياض، دار المسلم، ط أولى.

١٤- رؤى ثقافية، الرياض، دار المسلم، ط أولى.

١٥- عصرنا والعيش في زمانه الصعب، دمشق، دار القلم، ط
أولى.

١٦- القراءة المثمرة، دمشق، دار القلم، ط أولى.

١٧- العولمة / طبيعتها ـ وسائلها ـ تحدياتها ـ التعامل معها
عمان، دار الأعلام، ط ثالثة.

١٨- في إشراقة آية، أبها، دار هجر.

١٩- دليل التربية الأسرية، عمان، دار الأعلام، طبعة ثانية.

٢٠- اكتشاف الذات (تنمية الشخصية١)، عمان، دار الأعلام،
طبعة ثانية.

٢١- خطوة نحو التفكير القويم (تنمية الشخصية٢)، عمان، دار
الأعلام، ط أولى.

٢٢- تشكيل عقلية إسلامية معاصرة (تنمية الشخصية٣)
عمان، دار الأعلام، ط أولى.

